مدونة أبو عبدو

محمد علاء الدين

بلدي كلب مدرَّب

دار العين للنشر

روايـة

كلب بلدي مدرَّب

كلب بلدي مدرَّب

محمد علاء الدين

الطبعة الأولى / ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م
حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف رسوم وتصميم: مخلوف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٤٧٤ /٢٠١٤
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 267 - 3

كلب بلدي مدرَّب

رواية

محمد علاء الدين

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

علاء الدين، محمد.
كلب بلدي مدرب: رواية/ محمد علاء الدين.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٤

ص؛ سم.

تدمك: ٣ ٢٦٧ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٢٤٧٤ / ٢٠١٤

إلى مجدي الشافعي، وحاتم فتحي، وابراهيم السيد: أصدقاء حقيقيون.

"أنت جاي تعزِّي ولَّا جاي تهرِّج!"
"جاي أهرج!"

محمود أبو زيد
سيناريو فيلم "الكيف"

إيلاج. مؤخرة تصطدم بالدريكسيون. نفير. إيلاج. طرقعة لحم في لحم. مؤخرة تصطدم بالدريكسيون. نفير. إيلاج.

كانت نيفين قد أرجعت مقعد السائق إلى الوراء قليلا، وفتحت فخذيها الأبيضين الرشيقين، وكنت أنا في المنتصف، أعتمل بيدي على النافذة من جهة، وعلى أعلى كرسي السائق من جهة أخرى. عين على الطريق الطويل متحسبا لأي كشَّاف يقترب. وعين على ثدييها الجميلاين اللذين قفزا من فتحة القميص، محشورين قليلا ما بين قاعدة البرا وحمالاته. تذهب يدي اليسرى لاعتصارهما، بينما يتواصل الإيلاج وصوت الكلاكس. أحاول التحرك بعسرما، فقد كانت قدماي شبه مقيدتين ببنطالي الجينز الملتف حول كعبيّ، بينما تخلصت هي من بنطالها قبل قليل برشاقة تثير الدهشة.

إيلاج. مؤخرة تصطدم بالدريكسيون. نفير. إيلاج. طرقعة لحم في لحم. مؤخرة تصطدم بالدريكسيون. نفير. إيلاج.

عرفتها منذ يومين، كنا في عزاء توجد به قريبة، وحضرت هي كصديقة لها. في نهاية العزاء، المشحون بطاقات الحزن والشجن، عرضت تواصيلي لقهوة في وسط المدينة، وثرثرتْ في الطريق عن زوجها الذي هو في الخليج، وكيف تقيم هي مع أهلها في فيلا كبيرة على تخوم المدينة، بعدما رجعوا من الخليج هم أنفسهم، وثرثرت أنا عن أي شيء آخر بلا معنى، وكان كلانا يبحث عن وسيلة لفتح باب الجنس فيما يبدو، وعلى كل، وبعد أكواب الشاي بالنعناع، منحتني جنسا فمويا في عربتها الرابضة بآخر شارع شامبليون.

إيلاج. مؤخرة تصطدم بالدريكسيون. نفير. إيلاج. طرقعة لحم في لحم. مؤخرة تصطدم بالدريكسيون. نفير. إيلاج.

كان لقاءنا الثاني، وكنت واضحًا أنني أسكن مع خالتي، وكانت هي واضحة في أنها تسكن مع أهلها، وعندما كنا نمشي بالعربة في اتجاه بيتها، حيث يمكنني الترجُّل وأخذ تاكسي والسلام، برزت فكرة المضاجعة في السيارة وكأنها مفاجأة مبهرة. لم أتردد كثيرا ولم تتردد هي أبدا، وعلى جانب الطريق الطويل، الذي يؤدي للكومباوندز الكثيرة حول القاهرة، كان يحدث ما يحدث.

إيلاج. مؤخرة تصطدم بالدريكسيون. نفير. إيلاج. طرقعة لحم في لحم. مؤخرة تصطدم بالدريكسيون. نفير. إيلاج.

هي تتأوّه وتشد رأسي إليها مقبلة شفتي، أنزل مقبِّلا عنقها، بينما أنا أجاهد لضبط أدائي. كانت الوضعية صعبة، وكنت أفكر أنه من الأفضل أن نفعل ذلك في مقعد العربة الخلفي، ولكنها، وبحكمة سأقدرها جيدا، سألتني إن كنت أجيد السواقة، قلت لا. فقالت لابد وأن يكون أحدنا في مقعد السائق حتى يتحرك بالعربة إذا ما حدث شيء.

كنت أراقب الطريق جيدا، وبرعب ما أملاه الحدث الجديد تماما على حياتي، اقتربت منا عربة مسرعة، أمكنني أن أميز رأس السائق التي تنظر إلينا بينما العربة تمرق بجوارنا. يبدو وكأننا منحنا السائق مادة عظيمة للثرثرة مع أصدقائه على المقهى، أو لاسترجاعها في سياق العادة السرية، التي يمارسها الأزواج المحبطون.

تأوَّهت وطالبتني بالمزيد. يجب ألا أسهو عنها بالخوف من العابرين.

إيلاج. مؤخرة تصطدم بالدريكسيون. نفير. إيلاج. طرقعة لحم في لحم. مؤخرة تصطدم بالدريكسيون. نفير. إيلاج.

انهمكت ثانية فيما نفعل، وقد زادت الإثارة عن الوجل، ولكنني، وبينما سمحت لنفسي بأن أسهو قليلا، وأفكر في أنني لابد وأن أكتب قصة جنسية عما يحدث لي، وعندما اغمضت عيني مستمتعا بداخلها الدافئ الرطب، قد سهوْت للحظات محورية، عن بوكس يقترب.

إيلاج. مؤخرة تصطدم بالدريكسيون. نفير.....

فتحت عيني، رأيت البوكس الذي يقترب بسرعة، صرخت:

"بوكس!"

فتحتْ عينيها بسرعة، تحرك جذعها بقوة لم أتوقعها، مدت يدها لتدير مفتاح الكونتاكت، ولتميل برأسها عن يمين جسدي، ناظرة أمامها، وهي تضغط على بدَّال البنزين. انطلقت العربة صارخة، وارتمى جسدي عليها، بينما رأسي تنظر من آخر جسدي المتأرجح لسائق البوكس الذي تلمع عيناه، والضابط بجواره يهتف:

"هاتوهم ولاد المرة".

انطلقت نيفين بالعربة وهي تسوقها بيد يسرى واحدة، مثيرة

الغبار حولها، مدت يدها اليمنى وأمسكت، فيما يبدو، بالمقود ورائي، العربة باهظة الثمن تنطلق في سرعة جنونية، أنا رأقد فوقها، وهي تحاول النظر عبثا عبري إلى الطريق، ووراءنا بوكس البوليس المتحمس.

العربة تميل بنا ذات اليمين وذات اليسار، تتفادى هي عربة كدنا أن نصطدم بها من الخلف، تأرجحت مصطدما بجانب العربة على يميني، ثم وجدت نفسي أقع فوق كرسي المرافق عن يساري، وسطي يرتطم بـ"الفتيس" في ارتطام مؤلم، وساقاي لا يزالان ما بين ساقي نيفين.

تدوس هي على بدّال البنزين بهستيرية أكبر، لا تتأثر كثيرا بحركة جسدي، بل يبدو أنها قد أفسحت لها كثيرا، عيناي ترمقان المقعد في محازاتهما، يتناهى لأسماعي صوت ارتطام عنيف.

وبعد ساعة من هذا، كنا نجلس في ماكدونالدز.

تحضر لي صحني في هدوء شديد، تضبط حجابها المربوط بالطريقة التي يسمونها إسبانية فوق رأسها، ثم تقول لي :

"كُل"

تنهمك في الأكل بينما أنا أنظر لها، تنظر لي بهدوء قائلة:

"هممم؟ مالك؟".

"حادثة البوكس دي مش ح تعملنا مشاكل؟".

"هو حمار وخيش، إحنا ما لنا؟".

"طيب مش ح يدوَّروا ع العربية؟".

"ما لناش فيه".

ثم قالت بأريحية وتشير لصحني بيدها:

"كُل بقى وبطَّل فرك".

أتناول الشطيرة المدوَّرة، والتي يقل حجمها كثيرا عن شكلها في البوستر زاهي الألوان أمامي، وأعمل أسناني فيها، هازًّا رأسي في تسليم.

أتممنا الوجبة، التي دفعت هي حسابها فيما يبدو كأجر عن جهودي المخلصة، توصلني بالعربة إلى أقرب نقطة أستطيع أخذ فيها تاكسي، أسألها قبل أن أمضي:

"أشوفك بكره؟".

"كلمني".

وعندما هاتفتها مرتين بعد ذلك، لم ترد، وكان يبدو أنني كنت حادثة اخرى، سأكتبها بالطبع للموقع الذي يستعين بخدماتي، وسترويها هي لنفسها أو لصديقة مقربة، كحكاية مثيرة لن يصدقها أحد مهما ألحفتْ هي في القسم.

ظهرت الصورة أخيرا. كنت جالسا على مقعد في مواجهة الكمبيوتر، الذي نقل لي صورتها المعتادة، بشعرها الأشقر المعقوص وملامحها الصخرية وزرار قميصها الأعلى المقفول. قالت بعملية تميزها دائما، وبتلك اللكنة المميزة في نطقها للإنجليزية:

"هذا الشهر نتطلع لقصص محارم، سواء كانت مضاجعات بين أم وابنها أم خال وبنت أخته، يجب ألا تقل النسبة عن 60 % مما تبعثه كل شهر"

"حسنا".

قالت بوقار هادئ:

"أعجبتنا قصة السيدة التي اغتصبت في الطريق الدائري وأحبت ذلك. أنت موهوب".

"شكرا".

"هل يمكن تضمين بعض من الجنس الشرجي في هذا؟".

"حسنا".

"ولكن احرص أن يكون هذا بشكل لطيف".

"لطيف؟".

"يعني هي بعد أن استمتعت أحبت أن تمتِّع الرجل بما يحب".

"آه...".

"ما المشكلة التي رغبت أن تكلمني بشأنها".

"تحويل النقود لم يظهر حتى الآن يا راسيكا".

"لا! لقد بعثت لي بإيميل عن ذلك وقمت باللازم".

"لا.. لم يظهر شيء".

"حسنا. دعني أتأكد، على العموم أنا أنتظر قصص اليوم في تمام الساعة السادسة بتوقيتنا هذه المرة، هل هذا مناسب".

"مناسب جدا".

"جميل، إذن في انتظارك، وسوف أتابع موضوع التحويل. لا تقلق".

"شكرا".

"مع السلامة".

وقبل أن أرد كانت قد قفلت مكالمة الإسكايب.

راسيكا. سيدة أربعينية أقرب للبرود. لم أرها إلا في هذا اليوم البعيد، حين كانت تحادثني مع زميلين لها، في مقابلة عبر الإسكايب، بعدما قدمت أولى قصصي الجنسية لهم. لم اكن اتوقع ما الذي يمكن أن يسألوني عنه، ولكني لم أتوقع أيضا أن يقتصر الموضوع على بعض السلامات، و"نتمنى أن ترتاح بالعمل معنا" وحسب. في نهاية دقائق خمس، بقيت هي فيها صامتة، قدم أحد الرجلين - الذي لا أتذكر اسمه - راسيكا إليَّ، وقال إنها ستتابع تسليم قصصي وتبعث لي بالأجر المقطوع لهذا.

وحتي لا أسبب لك مزيدا من الارتباك، فدعني أقول إن ما خمنته هو صحيح: أنا أكتب القصص الجنسية لموقع لا أعرفه، وهم يبعثون لي بالنقود مقابل ذلك. 10 قصص يوميا، كل واحدة لا تقل عن 500 كلمة، مقابل ثلاثة دولارات للقصة الواحدة، وهو الاجر القابل للزيادة، كما قال لي الرجل الثاني، الذي طرد شاربه الكث، خاصة في اهتزازه حين يتكلم، أي تفصيلة أخرى يمكنك ملاحظتها عنه.

بدأ الموضوع قبل هذا بقليل، سمعت نصيحة أحد الأصدقاء، والعاملين في مجال البرمجيات، أن أنشئ حسابا على موقع odesk.com، وأن أنشر تفاصيل عني تختص بقدرتي على الترجمة

والكتابة الإبداعية وإعادة الصياغة وغير ذلك، وأن أبحث، أو أرد على عروض ممن يود أن يستعين بشخص له قدارتي في مهام محددة.

بالفعل، ولمدة شهرين، جاءتني عقود محدودة لترجمة كتب طبخ، وبضعة مواضيع عن فوائد زيت الزيتون وطرق صنع الجبن.

وفي يوم، لفت نظري أن أحدهم، من جنوب أفريقيا، قد نشر إعلانا يطلب فيه كاتبًا للعربية بشكل احترافي، ومجيدًا لقواعد النحو والصرف، لكتابة محتوى جنسي ممتد في الشبكة العنكبوتية.

وكمتابع كبير لما كانت تكتبة نجمة كتابة البورنو "نادية طيظ" على منتديات الإنترنت، ومهتم كبير بالمسألة الجنسية ذاتها، وكشبه كاتب، وجدت نفسي ابعث لهم عن استعدادي. بعد يومين طلبوا مني قصة من 1000 كلمة، وتدور القصة في أجواء رومانسية عن ولد يضاجع والدة صديقه.

وببعض خيالاتي الشخصية عن والدة صديق لي، كتبت قصة وجدتها جيدة، وحدث أن وجدها "محررو القسم العربي" لدى تلك المؤسسة جيدة أيضًا، وهكذا تم أول لقاء بيني وبين راسيكا والرجلين.

وبعد أسبوعين أو ثلاثة بعثت لي راسيكا بكارت ممغنط، يسمى بايونير، وهو الذي يمكنني أن أسحب به من أي ماكينة صرف آلي أجر هذه القصص.

عشرة شهور هي المدة التي قضيتها معهم، ولأول مرة تأخرت نقود الشهر هذه المرة، وتأخرت راسيكا في الرد عليَّ لأسبوعين، وهكذا احتجت أن أحادثها عبر الإسكايب. نظرت في ساعتي، لا يزال تتبقى ثلاث ساعات على الساعة السادسة، لا بأس: كنت قد كتبت ثمانٍ من القصص بالفعل قبل أن أحدثها، وبقيت لي حادثة العربة على الطريق الصحراوي، وقصة اخرى عن فتاة تقع في غرام خالتها.

هممت بأن أقوم لوضع الماء في البراد، استعدادا لصنع كوب كبير من الكابوتشينو، تصاعد جرس التليفون، نظرت للشاشة ثم رددت

"أيوه يا لول".

"لو فاضي بليل تعالالي. عايزك".

"تأمر يا غالي، أخلَّص حاجة كده في إيدي وأجيلك".

"شغال. سلام".

"سلام".

في ليلة من إحدى الليالي، قالت لي جدتي العجوز أن أحضر لها رطلا من اللحم بقيمة قرش صاغ.

حاولت أن أستوعب ما تقول، ولكنها اعتدلت فوق سريرها وأكملت بحسم:

"خليهم 4 رطل لحمة بأربعين قرش علشان سي إبراهيم، وجيب شوية تفاح على عنب على رمَّان وشكِّل براحتك قول بخمستاشر قرش، بصل وثوم وفلفل وخيار وخضار، قول بخمسة صاغ، وشوية جاز وبُن وسجاير كوتاريللي رفيَّع، قول سبعة صاغ، ورطلين سمن ورز وقوطة ودقيق وعيش بتلاتين صاغ، يبقى الإجمالي سبعة وتسعين قرش ويتبقى معاك تلات قروش.. تجيبهم وما تخنصرش.. فاهم؟".

كنت أقيم مع الجدة قبل وفاتها، وكانت تقيم معنا خالتي التي لم تتزوج بعد. جاءت الخالة ساعتها وأكدت لها أن حفيدها الطيب سوف ينزل حالا لإحضار الطلبات وأنه لن يغيب. رضا سي إبراهيم (جدِّي

رحمه اللـه) هو الشيء الأهم بالطبع. شدتني من ذراعي وخرجت بي من الغرفة، ووراءنا الجدة التي جلست بهمَّة منتصبة الظهر، ومليئة بالحماس والنشاط.

"شوية وح تنسى.. انزل إنت بقى شوية".

"أروح فين؟".

"روح مطرح ما تروح يا أخي، لو سمعت صوتك ح تفضل تنادي عليك".

نزلت لأ تمشَّى بغير هدى، وصادفت صديقين أو ثلاثة، وفكرنا في أن نذهب للعب الكرة، نادينا على صديق ثالث، وفكرنا في رابع يمتلك كرة: جوافة. محمود جوافة، الذي تأكد اسم شهرته الذي يقاومه حين مر بائع الجوافة بعربته تحت باب البيت، وصدح بالنداء:

"أيوة يا جوافة"، لتبرز أمه من باب البلكونة هاتفة بحنق:

"عايزين إيه م الوله اللـه يقطعكوا..".

لم نجد جوافة، قال لنا أخوه الصغير إنه في مشوار. هكذا قتل موضوع لعب الكرة تماما. تسلَّينا بالبقاء قليلا على ناصية الشارع،

وعندما رجعت للبيت، كانت جدتي قد ماتت.

بدا الأمر وكأنه تلبية لأمنية مؤكدة، فقد اتصل بها صديق لي سائلا عني، فقالت له أن يدعو لها، فسألها الصديق ببراءة عن مضمون الدعاء الذي سيكون مستجابا بعون اللـه، قالت:

"ادْعيلي ربنا ياخدني بقى".

بالفعل حدث ذلك، وعانى الصديق بعدها بقليل من أعراض الإسكيزوفرينيا.

هكذا وارى التراب جسد الجدة التي كانت تريد رطل اللحم، وعندما وقفت في العزاء لم أضحك على المقرئ، مثلما يحدث لي عادة، كل ما ملك تفكيري ساعتها، فيما أتذكر، أن الجدة العجوز قد أحكمت حسبة الجنيه فعلا، وأنها قد رحلت إلى لقاء ربها ظانة أني قد "خنصرت" الثلاثة قروش.

وبعد قليل من الحزن والصراخ، صارحتني خالتي سمية بأنها تريد الزواج من المهندس محمود الذي يقبع في محل لقطع غيار السيارات غير بعيد عنا، والذي أتي لدفع تكاليف "الدفنة" و"الخارجة" بشهامة لا يتورع عن إبرازها بوضوح لتلقي المديح، وبملامح قديس مضحٍ.

قالت لي الخالة إن الأسطى قال لها إنه لا يصح طبعا أن يقيم

معهما شاب. كنت يتيما تقريبا: ماتت والدتي منذ أمد بعيد، وأبي كان يعيش في مدينة أخرى بعيدا. قال لها إنه يمكنني أن أذهب للمعيشة مع أبي. قالت لي إنها رفضت هذا تماما.

"أنت ابن بطني يا أحمد".

وهكذا قالتها مثل محسنة توفيق في ليالي الحلمية، وكنت أنا شاكرا، لأن فكرة الإقامة مع أبي لم تكن شيئا مبهرًا، كنت ابنًا ماتت أمه بعد شهور قليلة من ولادته، وبما أن كل الذكور الذين يتزوجون إناث هذه العائلة - فيما يبدو - يقيمون معهن، فقد اضطر أبي لمغادرة البيت بعد موت السيدة التي كانت أمي. كانت لي جدة للأب أيامها، ولكنها لم تستطع أن تراعيني، وفضلت خالتي وجدتي لأمي - كما فضل أبي كما تستطيع التخمين - أن فرع الأم هو الأوْلى برعايتي. لم أكن ابن بطنها إذا ما تكلمت عن اللحم والدم، ولكنني كنت فعلا ابن بطنها إذا ما فكرت في كل المعاني الأخرى.

قالت لي إنَها اتصلت بالأب وأخبرته باحتمالية أن آتيَ له، الأب الذي لم يمانع ولم يتحمس، قال لها إنني يمكنني أن آتيَ وأقيم مع زوجته اللحيمة وأخواتي الاثنين. بالطبع لم أذهب.

مرت الأربعون يومًا وتزوجت خالتي بالباشمهندس، الذي كان سببا في كراهيتي للفنان صباح فخري وللأستاذ السياسي وحيد عبد المجيد، فقد كان يشبههما تماما، بنفس الأنف العجيب والشعر الخفيف

المسرَّح للجانب، في محاولة متوسلة لقهر الصلع الذي تفشَّى. زاد على هذا بعض آثار الجديري التي أصابته قديمًا وجعلت وجهه محفرًا في غير موضع.

كانت الخالة مشغولة في فترة تاريخية امتدت لسنتين في طبخ الطواجن التي ترسلها لمكتب الباشمهندس، وكان هو مشغولا بمحاولة التزاوج - علي حد علمي وتخيلي - وبأن يجعل حياتي جحيمًا، ولم يبخل عليّ أبدًا بعباراته الحكيمة التي تبلورت حول بضعة مفاهيم اساسية، كما يمكنك أن تتفكر:

"الواد ده مش ح ينفع يطلع مهندس".

"الكسل اللي أنت فيه ده ح يودِّيك ف داهية".

"أنت حاطط كتب التسالي دي جوا كتاب الدراسات الاجتماعية وعامل نفسك بتذاكر وبتستغفلنا؟".

"خليك في مجلة سمير وميكي دي اللي ح تبوظلك دماغك".

"هو مين الواد أشرف ده؟ وأخته الكبيرة البيضا دي في كلية إيه؟".

"ما تجيب لي علبة روسمان".

حدث جديا أن فكرت في ترك المنزل، وحدث فعليا أن هاتفت أبي فحادثتني حبال صوتية لا أعرفها ولا تعرفني، وتصادف أن تجدني

الخالة في شوارع منزوية هاربا، ولكن سرد كل هذا يبدو وكأنه قصة مأساوية مليودرامية وجان فالجان ستايل، لذا فسأرحمك مما يمكنني أن أسوِّد صفحات كثيرة به، وسأقول لك إن بعد السنتين، لم يخيِّب الباشمهندس أملي وكان نذلا، عندما ترك الخالة بسبب عقمها.

كانت تلك الأيام البعيدة هي السبب الذي جعلني مدينا لها للأبد، فقد كانت حسرة عمرها هي أسعد أخبار مراهقتي.

عندما برز من الفراغ أمام البائع، وطلب منه علبة سجائر من وراء خوذته السوداء اللامعة، بذلك الصوت الهادئ، لم يتمالك البائع نفسه ونظر له بدهشة، قبل أن يمد يده ليحضر له ما طلبه.

يعطيه النقود، ويتحرك ماشيا في الشارع، تجاه ما حسبه البائع دراجته النارية القابعة غير بعيد عن المتجر، ولا شك.

ولكن عبد اللـه، مرتدي الخوذة، كان يمشي في هدوء متقدما في الشارع، وهو لا يلوي على شيء.

هذه بالضبط نفس الفكرة التي انتابت كل من رآه في هذا اليوم، بلا شك هو يمضي لحيث الموتوسيكل، فيما عدا بعض من الناس، الذين أدركوا ما يحدث بحكم الظروف فحسب: العم إدريس البوَّاب، الذي بحكم معيشته في نفس العمارة، كان يعرف أن عبد اللـه لا يملك أي موتوسيكل، وقف مراقبا إياه وهو يمشي في الشارع واضعا يديه في جيوبه مصفرًا، وماضيا في طريقه إلى آخر الشارع قبل أن ينحرف يمينا خارجا عن مدى بصره. يمكنك أن تضيف على هذا

سيدة فضولية اهتمت بأن تراقب ذا الخوذة وهو يوقف تاكسيًا في أحد الشوارع، وهو لا يزال مرتديا خوذته، بعدما استمر في المشي لمسافة لا بأس بها وعبر بموتوسيكل مركون بجواره بالفعل.

ويمكنك إضافة سائق التاكسي نفسه، الذي وجد الشاب ذا الخوذة يشير إليه ويقول:

"المعادي؟".

وركب الشاب معه إلى حيث المعادي دون أن ينزع خوذته، حتى عندما أراد التدخين، فقد وضع السيجارة في فمه عبر الفتحة الكبيرة في مقدمتها، ساندا إياها على "حز" الفتحة، فانتصبت إلى أعلى بحكم انخفاض فم عبد اللـه عن الفتحة قليلا، وهي تصدر دخانا كثيفا.

كان خط سير عبد اللـه اعتباطيا للغاية، كان يتمشَّى قليلا فحسب، قبل أن تقفز إلى دماغه فكرة أن يزور صديقًا بعيدًا في المعادي، وعندما ذهب هناك لم يجده، فتمشَّى قليلا في الشوارع الهادئة، وداخله شيء من هدوء النفس، صحيح أنه لم يجعله ينزع الخوذة ليواجه العالم القاسي، ولكنه كان كافيا لجعله يسلم على المارة من حوله أحيانا بلطف، وبنبرة منتعشة فاجأته هو نفسه كما فاجأت المارة عادة.

وعندما رجع، كان العم إدريس قد قام بالواجب، فقد كانت هناك

عربة ميني فان صغيرة ترقد بجوار البيت، وعندما اقترب عبد الله ليدخل البيت كان هناك ثلاثة من الرجال الأشداء يقفزون عليه، مكبلين إياه ومجرجرينه إلى حيث العربة. كان هذا قرار الأب رغم اعتراض الأم، فقد بلغ إدمان الفتى وعاداته الغريبة حدًا لا يمكن السكوت عليه.

وفي المصحة، قال لي عبد الله عن الضرب والسحل اللذين تعرض لهما - والذي اعتبره الاب من ضلالات الفتي - وكيف كان يعامل معاملة الكلاب.

هكذا لم يكن غريبًا في يوم، أن وجدت محمولي يدق بعد الواحدة بقليل، وعندما نظرت للشاشة وجدت اسم عبد الله.

"ألـ.."

"أنا هربان! أنا هربان! أنا هررررررررررر (صوت خبطات متتابعة عجيبة) باااااااااااان".

كان عبد الله يكلمني من أمام المنزل، وكان يضرب براحته اليمنى الكبيرة على رأسه الأصلع، ويعوي في الطريق.

"الله يخرب بيتك استنى...".

وضعت بلوفرًا فوق البيجاما، خرجت إلى الصالة حيث الخالة، نظرت لي متحفزة وهي تقول:

"هو ده الواد الشمام ده تاني!".

"ماعلهش يا خالتي ده غلبان...".

انطلق صوتها في شراسة وبنبرة أوبرالية:

"لاا!! باقولك إيه! ده شمَّام ومنحرف! ده يموِّتنا علشان يجيب الزفت اللي بياخده! إنت مجنون ولا إيه!".

ومن الخارج كان عبد اللـه لا يزال يصدح:

"أنا هربااااااااااااااااااااااان".

"يا خالتي بس هو ما لوش مكان دلوقت، تلاقيه هربان م المصحة!".

"وكمان هربان م المصحة! وإحنا ما لنا! أهله فين!".

"طيب طيب.. سيبك، أنا نازله".

تركتها ونزلت للشارع، بينما هي تقول من ورائي:

"وإنت إيه يلمَّك ع الأشكال دي؟ إوعَ تكون بتشم ياض إنت كمان...".

كانت ليلة ليلاء، كان هائجًا ومتعبًا في ذات الوقت، وكنت بالبيجاما والبلوفر، ولم تكن خالتي على استعداد لأن يبيت الليلة. اقتسمنا السجائر وكمنَّا في المدخل، فكرت بعدها أن أغيرِّ ملابسي ونمصي في طريقنا لأي مكان، ولكنه فجأة أمسك بذراعي وقد استحالت أصابعه إلى مخالب، وهتف بي:

"ما تسبنيش يا أحمد.. ما تسبنيش...".

"وأنت عامل إيه؟".

بدا لي السؤال غبيا فعلا وهو يجلس أمامي، في الشقة التي استأجرها حديثا بنقود أمه، ليجهز سطرا ليستنشقه. لم يكن سكوته عن سؤالي من باب الأدب والرفق، لأنني أظن أنه لم يسمعني من الأصل. سحب السطر بنشوة كبيرة، وتراجع مسندا ظهره إلى ظهر كرسيه وقد ابتدأت جفونه في الاضطراب. راقبته قليلا، وأنا أشرب من علبة البيرة الصفيحية في يدي، يفتح عينيه ويحك أنفه بظهر يده، قائلا في مرح:

"أخبار القصص السكس إيه يا ماو؟".

كان يعرف أنني أكتب القصص الجنسية، وبدا الأمر وكأنه إضافة لعادة عجيبة تملكتنا قديما: حين كنا نراجع معلومات بعضنا

عن نجمات البورنو اللواتي شكلن جزءًا كبيرًا من أيامنا في خوالي الأيام. بدأ الموضوع حين وجدت صفحة الويكيبيديا المخصصة لنجمات البورنو، وقرأت فيها عن تلك الفتاة التي كنا نحبها أيامها. وجدت نفسي أتصل بعبد اللـه بعدها بساعة:

"أحاً يا عبد اللـه.. فاكر البت بتاعة الأفلام السكس اللي اسمها كلوي جونز!".

"آه".

"دي ماتت من أربع سنين!".

"آه".

"وكان عندها صرع من وهي 11 سنة! أحاً! إحنا كنا بنضرب عليها عشرة وهي بتشيل ف الأفلام وهي عندها صرع أساسا!"

"الدنيا وحشة يا ماو".

هكذا لم يقدر الاكتئاب الذي تملكني لمدة يوم كامل بسبب هذه الحقيقة، كانت الشائعات كثيرة عن موتها بفشل في وظائف الكبد، ولكن يقال -على عهدة دينيس ريتشاردز التي لا تقل جمالا عن نجمات البورنو- إن زوجها السابق شارلي شين هو من قتلها. لم يقدر عبد اللـه هذا التبحر الذي كنت فيه في تاريخ أفلام البورنو، وزمن الفن الجميل في السبعينيات، حيث كانت الأفلام الجنسية تصور سينمائيا

قبل ابتذال أفلام الفيديو، كما عبرت شخصية بيرت رينولدز في فيلم بوجي نايتس بقرف. كانت الشخصية لمخرج أفلام جنسية يشعر بالعار لهذا السقوط الفني المريع.

كنت أفكر في هذا وأنا اشعر بأنني "يهودي يكره نفسه" على رأي جولدا مائير عن ناعوم تشومسكي، كان زمننا نحن الجميل هو زمن أفلام الفيديو، وليس أفلام السبعينيات التي قرأت عنها كمراجع أو شاهدت أفلام منها كنوادر، مثل فيلم دييب ثرووت التاريخي الذي مثلته ليندا لافلس "تحت التهديد" مثلما قالت بعد ذلك، قبل أن تتحول لمناضلة ضد أفلام البورنو.

لا يعرف عبد اللـه كل هذا، ولكنني كنت أقدر له عندما أسأله:

"فاكر البت ديفون؟".

"مش دي البت الشقرا أم بزاز كبيرة اللي كانت بتبص ف عين اللي بينيكها وتسبِّل؟".

ويستمر الحوار حول سيلفيا ساينت التشيكية الشقراء، وآريا جيوفاني فتاة البنت هاوس معبودة الجماهير، الأمريكية التي تبدو كالإيطاليات، وإيشا كاريبرا الإنتاج الألماني الياباني المشترك، وبريانا بانكس الإنتاج البافاري الأمريكي المشترك، ولاني باربي الكندية التي أشيع أنها تضاجع أخاها، وجينا جايمسون، ملكة البورنو

ونجمة أيام الفن الأصيل، إيطالية الأصل التي تبدو كالأيرلنديات، التي تحولت إلى كاتبة يتصدر كتابها "كيف تمارسين الجنس كنجمة بورنو" سوق المبيعات حسب النيويورك تايمز، وظهرت في العديد من من البرامج التليفزيونية والإذاعية، ابنة ضابط البوليس التي كانت ممثلة أفلام إباحية ثم نجمة إعلام، وبالطبع يتذكر لها الجيل فيلم شرطة المطافئ وسلسلة أفلام الجنس التفاعلي. المشهد المشهور في "برايفت بارتس" حينما يجعلها هارلد ستيرن تبلغ الذروة عن طريق الجلوس فوق بيك آب ضخم، بالطبع، مشهد السحاق مع جانين ليندمولدر، فاتنة ذات الأيام التسعينية، الأمريكية التي تبدو كهندية حمراء مهجَّنة مع جريجية، أو كشبيهة لليزا ماري بريسلي. ألهبت جانين مشاعر الجيل العاطفية لعقد كامل بعدما بدأت في أفلام سينمائية عادية في إيطاليا، لتتحول لأفلام البورنو في دور الأنثى العنيفة المتطلبة، والذي بدا حقيقيًا عندما ضربت زوجها الموسيقي في الواقع. ظهرت في "برايفت بارتس" أيضًا كتقدير لأحد أعلام سوق يدر على أمريكا 100 مليار دولار سنويا.

سافانا الأمريكية التي تبدو كأمريكية، والتي يقال إنها انتحرت بإطلاق النار على نفسها بعد حادث سير خلَّف أنفًا مكسورًا، صني ليون الهندية الكندية التي تبدو كهندية، ولكن من كوكب آخر، فخر الجيل، سيدة الاعمال والتي تشعر بالعار لتاريخها كنجمة بورنو.

وهكذا أيضا كان يتذكر ليا دا ميا، نجمة البورنو التشيكية التي

كانت عضو فريق السباحة الأولمبي في بلدها، والتي ماتت، كشأن عدد كبير من نجمات البورنو، بورم في المخ وهي صغيرة.

"بس اللـه يرحمها كانت بتشيل من ورا بكفاءة".

يقولها عبد اللـه وهو يلف سيجارة حشيش "علشان يعلِّي" بعدما أخذ أربعة من سطور الكوكايين.

قبل أن تموت ليا، صنعت أختها موقعا إلكترونيا صارحت فيه المحبين بحقيقة مرض أختها، وعن احتياجها لتبرعات تكفي لتغطية ثمن العملية الباهظة الثمن، فقد كابرت أختها واستمرت في العمل كما يليق بالمحترفات حتى وهي في أوائل المرض، ولكنها بالفعل لا تستطيع العمل في لحظتها. الأمر المثير بالنسبة لي أنني وجدت رسائل مليئة بالحب على هذا الموقع، من أناس مثلي ومثل عبد اللـه، قضوا بعض من الليالي والأيام ينظرون لجسد التشيكية المدهش، وقضوا أوطارهم وراء تلك الفكرة البعيدة أن يحوزوها في أسرتِّهم يوما ما. ترك لها أحدهم رسالة يبلغها أنه قد تبرع لها بمبلغ بسيط، وأنه شاكر جدا "لكل هذه المتعة التي منحته إياها".

العديد منهن متن ميتات تراجيدية، وهو الأمر المغري لأحدهم، من أولاد الوسخة، أن يقول إن بنات إبليس لاقين ما يستحقن، وابن الوسخة هذا جدير بمصير أحد نجوم البورنو من الأقزام: يقال إن غريرًا قد التهمه في كهف.

"بص، هو المهم إنك عارف تجيب فلوس من لسعة الدماغ دي".

يبدو لي مفارقا أن يتكلم عبد اللـه عن لسعة الدماغ، بينما هو متهدل هكذا في كرسيه.

تناولت "الجوينت" منه، وأخذت نفسين بعمق.

دخلت إلى حيث قادني علاء، وفوجئت أنه، وبجوار كمبيوتره المعتاد، كان قد رص أربعة كمبيوترات أخرى على طاولة كبيرة بطول الغرفة أمامي.

"هو ده علشان إيه يا لول؟".

وجدت نفسي أتساءل.

نظر إليَّ نظرة من يعرف أن الأمر سخيف، وانطلق كالعادة ليبرر الموضوع:

"فاكر حوار تحميل الطوابع؟".

"علي قناة اليو تيوب؟".

"آه" صمتّ للحظة ثم أكمل:

"آهو أنا جايب الأربعة دول يحملوا معايا..".

"هي نقلة طوب؟".

"لا يا عم دي فعلا بتساعد".

"طب ما أنت ممكن تظبَّط حاجة في الجهاز ده (أشرت لجهازه) بحيث يعمل الشغل كله.. بدل الصرف".

"يا عم مش صرف، كل واحد كلفني... هممممم.. كل كيسة 500 وكل شاشة 300، يعني 800 في 4 يبقى.. هممم... 3200 جنيه.. مش فلوس يعني!".

استرجعت ذكرى بعيدة، حين اقترضت منه ألفين من الجنيهات، وتكاسلت شهرا، فجعلها فضيحة لدي القاصي والداني، ولكنني لم أتوقف عند هذه الصغائر، فقلت:

"ما هو ممكن أقل من الفلوس دي، وكمان تبقى أسهل في جهاز واحد..".

"يا عم أنا اتجننت خلاص".

قالها لي بحسم، نظرت له، تابع:

"تشرب إيه؟".

"بيبسي!".

خرج إلى حيث الثلاجة، رجع بعلبة البيبسي، وجلس أمامي، ليلعب في وجنته مقشِّرا بشرة وهمية عنها.

كان اللول صديقي منذ سنوات بعيدة، كان مخرجًا في إحدى القنوات الخاصة، ولكن حدث ما حدث، واضطر للاستقالة، وبعد الاستقالة اضطر لبيع الشقة الواسعة التي ابتاعها في أحد الكومباوندات الفاخرة خارج المدينة، ولم يكن يسكن بها، ثم اضطر لبيع عربته أخيرًا. وها هو الآن يستمتع بشقته الصغيرة التي نجلس فيها، في اول شارع فيصل.

"بص، الفيلم ده لو اتعمل ح يكسر الدنيا".

هكذا قال بعدما أتم فرك وجنته، كنت أعلم عما يتحدث بالضبط: كانت فكرة قديمة في دماغه، عن شاب رومانسي يحب فتاة ما، ولكن الفتاة تصاب بمرض عضال، فيحدث الفراق لأنها لا يمكن أن تسمح لنفسها بأن يتعلق به وهي تموت.

"غادة الكاميليا يعني!".

هكذا قلت عندما قال لي الفكرة في أول مرة. نظر لي للحظة ثم قال:

"بالضبط.. بس من غير الأب".

"ماشي".

"هو الجو ده اللي بياكل معانا في مصر، إنت عارف".

والآن، يحادثني اللول عن ذات الفيلم، قضى وقتًا لا يستهان به

في محاولة إنتاجه ولكن لا أمل حتى الآن.

"ربك كريم".

"لا بجد بقى.. السيناريو اللي كتبته حلو فعلا، وإنت عارف أنا ح اعمله إزاي!".

هو فعلا موهوب فيما أظن، وفيما ظن أساتذته في المعهد، ولكنهم، وفيما يبدو، قد منحوه هذا التدليل الزائد مبكرًا. قال لي مرة، بينما نحن نجلس على القهوة:

"أنت بقى تعرف ويليام شكسبير كان يقصد إيه في روميو وجولييت؟".

"إيه يا لول؟".

"إن جوز عيال هِبل ممكن يوقعوا الكبار ف بعض".

بالفعل، إن راجعت المسرحية، ستجد أن الموضوع كان اعتباطيا للغاية، يكاد روميو الصغير أن يقع في غرام بنت صغيرة أخرى قبل أن يقابل جولييت.

تابع بحماس:

"طب الملك لير؟".

"الحب وحش!".

"الديكتاتور لازم يفضل ديكتاتور، لو بطل ح يطلع دين أمه".

هكذا كان اللول يبهرني دائما بتفسيراته المختلفة، ومن أجل ذلك كنت دائما أحادثه لنجلس ونتحدث، خطر هذا في بالي، فسألته وأنا أجرع من البيبسي:

"طب بالمناسبة يا لول، أنت دايما بتقرا القصص بطريقة تانية، اشمعني غادة الكاميليا اللي غادة الكاميليا؟ طب تطلع هي ولية لبوة فعلا وبتبيعه، أو مثلا هو مش بيحبها بس عايز فلوسها؟".

نظر لي لثانية ثم قال:

"يا عم الناس هنا حمير، مش ح يفهموا اللي أنت بتقوله ده خالص".

"طيب".

"المهم أنا عايز أعمل برنامج الرقص الشرقي ده ونرفعه ع اليو تيوب، ح تيجي التصوير ولا لأ؟".

"طبعا.. بس قولي الترافيك عامل إيه؟".

"حلو، بعتولي النهاردة إيميل صحيح من جوجل، ما تبصلي عليه كده".

يذهب اللول إلى حيث الكمبيوتر بحماسة، يفتح لي الصفحة، ويتركها أمامي لأترجم له ما يريده سيد العالم الجديد منه.

عندما التفتتْ إليه، بقميص نومها الأحمر القصير، متأهِّبة لمزيد من الرياضات التنافسية، فوجئت به يفتح مطواة، بين فخذيها، قائلا في نبرة مخيفة:

"طلِّعي الصيغة اللي ف الدولاب لأبوظلك أكل عيشك".

بالطبع كانت هذه مفاجأة للمرأة، ولكنها لم تكن حادثة استثنائية في حياة "علي لوزة".

ينحدر "علي لوزة" - وإن كان هناك شك في مسألة "انحداره" هذه - لعائلة ميسورة في أحد المناطق الشعبية التي تصر دوما على تصدير قيمة "الجدعنة" و"الرجولة" في وجه فرافير الطبقة المتوسطة. وكمنت ثروة العائلة في اختطافها لسوق "إكسسوارات البهائم" من فشه وطحال وخلافه، مما يعني قدرة بدنية مبدئيًا، وتمكن كبيرًا من استخدام الأدوات الحادة.

وإذا اتفقنا أن لكل دائه، فقد كان داء على "لوزة" في النساء، فكان مولعا مغرمًا بكل كائن حي يمتلك فرجًا، ذاعت سيرته في

الأرجاء كفاحش مكتمل التكوين، لا يردعه شيء عن حبه الأثير، ولا يبخل على "المزة" التي تستجيب بكل شيء، بداية من أرغفة السمين التي يهديها مجانا من أجل تسمين الزبونة، مرورا بكروت المحمول ودعوات المطاعم والشيشة، انتهاءً بالحلي الذهبية والهدايا العينية.

بالطبع كان هذا مثارًا لغضب أبيه، الحاج محمود لوزة، والذي لن يسيئه كثيرا أن يرغب الابن الوسط في أي شيء حي يتحرك فوق البسيطة، بل - وبالطبع - ساءته كمية التبذير التي يصل إليها. ولكننا، ومن باب الإنصاف، يجب علينا أن نتذكر أن غضبه هذا بدده شيئان: أولا الابن الأصغر عادل، اسمه الحركي حمسة، والذي أدمن عقاقير الصرع، والتي قادته للسرقة بالإكراه، ومنحته فائدة إضافية في الشعور بفرض السيطرة، ولعل مثالا واحدًا يلقي لنا الحكمة بوضوح:

ففي إحدى نوبات غيبوبته، رأى حمسة حذاءً رياضيًا أعجبه في قدمي أحد زبائن الأب، فحدث أن كمن له في إحدى الحواري بعدها بساعة، ليفاجئه بعدها بمطواة مشهرة، وأجبر الزبون على خلع الحذاء فورًا. مما يدل على الوله، هو حقيقة أن حمسة لم يستول على مال من الزبون، الذي بان غنيا وميسورًا، فقط اكتفي بـ "الكاوتش"، ولكن هذا لم يشفع له حين قلب معاون المباحث المنطقة كلها بحثا عن هذا "الكاوتش" المفقود: لقد كان الزبون بطلاً دوليًا في رياضة

يمارسها الرئيس، ومشهورًا للغاية، وبالطبع هذا كان بعيدًا للغاية عن منطقة اهتمامات حمسة.

ولكنه، تبعا للمحددات اللاحقة، اضطر للتعاون مع رجال القانون، ليحضر لهم فردة واحدة فقط من "الكاوتش"، وأقسم بأغلظ الأيمان - صدقا - أنه لا يعرف مكان الفردة الأخرى.

ويمكننا التيقن من أن معاون المباحث كانت لديه أساليبه في انتزاع المعلومة من دماغ حمسة حتى ولو كانت قد "هربت منه" مثلما يقول أبناء المنطقة بيقين مستقر، ولكن الأب تدخل بما له من نفوذ، واعتذر بنفسه للنجم الدولي مقبِّلا دماغه، واشترى له حذاءً جديدًا في التو واللحظة، ووعده بوجبات متعاقبة مجانية فقط لو عفى عن حمسة "الملعون الواطي ابن المرة الوسخة" كما قال حرفيا.

هذا بالطبع سبب أولِّي كاف تماما ليكون غضب الأب على الابن الأوسط أقل، ويمكنك تخيل أن ما يفعله على عادة، وهو فتح المطواة بين أفخاذ النسوة اللاتي مل منهن أخيرًا ليسرقهن، قد وصل بالأب إلى درجة من الغضب هي أشبه بغضبنا عندما ينثر أحدهم رماد السيجارة خارج المنفضة دونما قصد.

بالطبع كان لدي على تبرير أخلاقي مناسب تماما لمستوى الموقف:

"نشوان شراميط بيشتغلوني ويناموا مع طوب الأرض وهما معايا، وفلوسهم حلال".

كما قال لصديق ما، سأله عن صحة الوقائع التي تروَى عنه هنا وهناك، ويهز رأسه بعدها موافقا على مثل هذه الحكمة العظيمة، التي خرجت من فم روبن هود، الداعرات، مختلطة بغير قليل من دخان الحشيش.

بالطبع لا تستطيع النسوة التبليغ عما جرى، أو مصارحة أحدهم بذلك، وهكذا يمضي "علي لوزة" أيامه في حبور عظيم.

وفي يوم، شاهد هذه الفتاة الحسناء، التي ترتدي الحجاب الإسباني وتضع أحمر للشفاه بعناية فوق شفتيها الممتلئتين، آتية مع شاب ما، ليأكلا من عند المحل. لفتت نظره عربتها الفاخرة، وبالغ في الحفاوة بهما، أو بها هي وحدها حرفيا، وأخذ يراقب، من مكمنه بجوار الآنية الحديدية العملاقة، شفتيها الممتلئتين وهما تنثيان في خفة بينما هي تمسحهما بالمنديل الورقي الفاخر الذي أحضره لها.

وعندما كانت على وشك الرحيل، سلم عليها وفي يده ورقة مطوية تحمل نمرته، ابتسمت وهي تحس بالورقة فوق جلدها، ساحبة يدها لتلتف حول الورقة بخفة لم يلاحظها مرافقها. قال لها بحماس:

"بالشفا يا هانم. نوَّرت يا بيه".

قال الشاب شيئا لم يتبينه، وبينما هما يركبان سيارة الفتاة، التي لم تكن غير نيفين، كان "علي لوزة" يقول بصوت عال:

"أيوة السمين العال".

"بدات قصتي وانا في 19 من عمري عندما كنت بدرس في الجامعه في بلد اخري وكانت لدي مشكله في المواصلات كل يوم الي ان جه عمي وهو ضابط شرطه وطلب مني اني اقعد عندهم لحين اني اخلص دراستي وكمان قالي عشان تاخد بالك من مرات عمك لانها بتقعد لوحدها وانا ببقي قلقان عليها فوافقت وكلي فضول اني هروح اقعد مع مرات عمي ريم خصوصا انها بتتمتع بجسم جبار كنت بحسد عمي انو اتجوزها من حلاونها وجمالها كانت مش طويله قوي والشعر الاسمر الطويل والعنين العسلي اما الجسم فكان لا يوصف لانها كانت عندها صدر كبير وطبزها مدوره وكبيره كنت كل لما اشوفها احلم اني انام مهاها المهم كانت علاقتي بيها كويسه كنت كل لما اشوفها تسلم عليا وتحضني وتبوسني بس انا كنت بحس ان والحضن والبوس جواهم شهوه كبيره وجه اليوم اللي سافرت فيه وروحت لعمي البيت كان عمي موجود روحت ومرات عمي فتحتلي رحبت بيا جامد وقلتلي انا سمعت انك جاي تقعد معانا قولتلها ان شاء الله المهم دخلت..".

توقفت فجأة: ما الذي سيحدث هنا؟ لدينا العديد من الاختيارات، أولا سينام العم، وسيحدث الموضوع، ثانيا سيخرج العم وسيحدث الموضوع، ثالثا لن ينام العم أو يخرج لكن تستمر فقرة الإغواء إلى حين يحدث الموضوع. رابعًا لن ينام العم أو يخرج ولكن سيتبين لنا أنه مريض بمرض نفسي مشهور وهو أنه يحب أن يرى امرأته تضاجَع من ابن الأخ. خامسا لن ينام العم أو يخرج أو يحب أن يرى زوجته تضاجَع ولكنه سيكون مثليًا وسيكون الموضوع حبًا من طرف ثالث.

كنت آخذ الموضوع بجدية، كما كنت أقول لنفسي: أفكر جيدا فيما يحدث، ولا أحب أن أكتب سطرين ثم أدخل في الموضوع وتنتهي القصة في فقرة واحدة، كما يفعل المصريون فعلا في الجنس عادة. كنت أحب أن آخذ راحتي في التمهيد والبناء، وكنت أعرف أن المناطق السحرية في الحكاية هي دوما الأعمار، كبر الأبطال أم صغروا، وأن تكون مؤخرة الأنثى كبيرة، وأنه من المفضل أن يكون صدرها بثقل هذه المؤخرة.

بلغ من تقعري في هذه المسألة أن تعمدت ألا أكتب نصًا رصينا، تعمدت دوما أن أكتب نصًا بلا فواصل أو نقاط ومليئة بأغلاط الإملاء. أتذكر، عندما كنت أصغر وأقرأ هذه القصص نفسي، أنني سمعت عن نظرية تقول إن كاتبًا مشهورًا يقضي بعض وقته في

كتابة قصص السكس في المنتديات، وهو الكاتب الحقيقي لرواية "نادية"، برصانة أسلوبها الأدبي، التي يمكن مقارنة أهميتها في الأدب الجنسي بأهمية "مائة عام من العزلة" في الأدب الرفيع مثلا. كانت هذه جدية ما بعدها جدية بالنسبة لي، وذكرني هذا بنجمات بورنو تحولن لمناضلات نسويات وجنسانيات مثل نينا هارتلي، أو معلقات دائمات على مثل هذه المواضيع مثل جينا جايمسون، أو حاملات لدرجة الدكتوراه في علم النفس مثل نجمة أخرى لا أتذكر اسمها.

ورجوعا للكتابة، فأنا لم أبلغ من تصديق الذات الدرجة التي بلغتها نادية طيظ: لقد كتبت مقالات كثيرة في الرد على منتقديها، وأشارت بوضوح إلى أن سبب تخلف المجتمع المصري هو عدم وضوحه مع ذاته، وعدم اعترافه بغرقه في الوحل، "خضرة الشريفة إيفيكت" بلفظ آخر.

رائعة طيظ، "ألف نيكة ونيكة"، وهي التي يمكن مقارنة أهميتها في الأدب الأيروسي بـ"في مديح الخالة" مثلا، ترسخ على حسب رأي روائي مثل احمد ناجي "كسر تابوهات المجتمع": رجل الشرطة غالبا شرير، وشيوخ الفضائيات غارقون في المثلية، مشكلتي الدائمة مع هذا المنطق هي نفس مشكلتي مع الأدب الاشتراكي الاجتماعي.

استمرت نادية في طريق التنظير الثقيل، فكتبت كتابًا "كاماسوتراوي" عمدة عن الجنس الخلفي بعنوان "أسرار الإبداع والإمتاع ما بين

الأرداف والبتاع". وهي دراسة مزدانة بأبيات ألفية أنس بن مالك، وأسست نادي الأدب الأيروسي على الإنترنت قبل أن يتم تخريبه بمجاهدي الإنترنت الغيورين على دين الإسلام، والذين يرون أن نادية طيظ وأتباعها وأشياعها مسيحيين صليبيين ينشرون الفحشاء في ديار الإسلام التي تحتل فيها مصر محل القلب، والمركز الثالث في تصفح البورنو على الإنترنت بعد أمريكا والهند، حسب دراسة حديثة في العام 2013.

واستمرت مسيرة الأدب الأيروسي، فيمكننا أن نسمع عن أعمال كبيرة مثل "بيت الطالبات" و"الغرفة 48" و"سمر وأخواتها"، وعرفنا نجومًا لامعة مثل السادة عادل وصفي ونجوى عزيز، والثنائي خالد وميادة ود. خالد محمود رزق الشهير بسونسرت الثالث، صاحب رواية "الهروب إلى المجهول" التي تجادل بأن إسرائيل ستدمر مصر بالنووي، فيهرب الدكتور سامي إلى الصحراء وبرفقته ثلاث من النسوة يتفرغ لمضاجعتهن لإنجاب ذرية تحرر مصر من العدوان والضيم بإذن الله، بمساعدة بدو الصحراء الذين هم مصريون وطنيون، وهي رسالة وطنية كما تعلمون.

وكما وصفت طيظ أنها تكتب عن "الوحل" وكما اهتم سنوسرت بالرسائل الوطنية، اهتمت قصص جنسية أخرى بالنهايات الإغريقية التطهيرية أيضًا، فيصاب البطل الزاني بمرض الإيدز، أو تنفجر

به الطائرة مثلا. خطر في بالي أن تكون نهاية قصة الولد الذي سيضاجع امرأة عمه أن تقطع المرأة عضوه في النهاية.

كتابة عشر قصص في اليوم شيء مرهق فعلا، في أيام كثيرة لا أدري ما الذي سأفعله، فأتسلل لمنتديات النت، والتي أجد بعضها قد نقل الكثير من قصصي، لأسرق قصصا لآخرين، وأعيد صياغتها. وعندما كنت ألوم نفسي على الوقت الذي أضيِّعه في كتابة البورنو بالأمر، أذكِّر نفسي أن ديستوفيسكي قد كتب أبدع كتبه من أجل تسديد ديون القمار. من ناحية أخرى فقد كانت هذه الكتابة تسمح لي بتجريب آراء وجدتها صحيحة، فيمكنك أن تكتب عن "ميلف" تشبه زوزو شكيب وتجد نجاحات مبهرة، بالضبط حين تكتب عن جارة تشبه سلوى عثمان، أو سيدة أعمال متسلطة تشبه صفاء السبع، أو خادمة في بيت ثري تشبه أمل إبراهيم، أو سكرتيرات متطلعات اجتماعيا يشبهن سميرة صدقي أو عايدة رياض، أو هانم بيضاء بضَّة مثل بثينة رشوان التي يمكنها أن تكون فلاحة في غيطان الدلتا أيضًا، في اختلال واضح لمفاهيم الجمال لدى الأجيال التي تبعت ثورة 52 المجيدة. نجمات الإغواء والإغراء العاديات اللواتي لا يعترف أحد بكونهن كذلك بسهولة.

"النور جاي بكرة وأنت ح تدفع، خلِّي بالك".

يتصاعد صوت خالتي من خارج الغرفة، وهي تذكِّرني بمساهماتي

الشهرية: أنا بالنسبة لها شاب فاشل، يجلس أمام هذا التليفزيون المزود بلوحة الأزرار كما تتخيل، مرتديا الفانلة الجل الحملات، منكوش الشعر منبت اللحية لأفعل اللا شيء. منبوذ جديد ينضم لقائمة طويلة من الفشلة التائهين. تذكرني بين الفترة والأخرى بكل الأصدقاء الذين "نجحوا" في أن يكونوا أزواجًا وآباء، وموظفين محترمين.

"أيام إن فاتك الميري دي راحت عليها يا خالة!".

"كنت برضه تتعين بالعقد.. جتك نيلة فيك وف خيبتك..".

"يمشوني في أي وقت".

"بس يا نُطعي.. ده جوافة اللي اسمه جوافة بقى محاسب وشغال وخاطب وبسم اللـه ما شاء اللـه عليه".

"طيب".

"مش إنت كنت غاوي كتب وقراية؟ عملت إيه بشهادة الآداب؟ مش قلنالك الأستاذ عبد الحفيظ ح يعيِّنك في الاهرام؟".

"محدش بيتعين.. كله كوسة".

"خليك كده.. نفسي أعرف مين اللي تاخدك دي".

هكذا تباغتني ما بين الوقت والآخر، وتقول لي بصراحة إنني كبير ويجب عليّ تحمل مسئولية نفسي، وكنت أعلم انني ما دمت

أدفع الكهرباء على الأقل فهي لن تتكلم كثيرًا، ولكنها بالتأكيد تتساءل من أين أحضر هذه النقود. كنت أكتب القصص التي تصف الجنس لأدفع الكهرباء يا أيتها الخالة.

في يوم من الأيام سأكتب رواية وستنشرها لي كبريات الدور في هذا البلد، في يوم من الأيام سآخذ النوبل وسيكتبون في سيرتي الذاتية إنني قد بدأت بكتابة القصص الجنسية مقابل 3 دولارات في القصة الواحدة.

كانت الراقصة ذات الكرش تتهادى ببدلة الرقص الذهبية، والتي كانت أشبه بحزام عريض حول الكرش ينزل منه "كيلوت"، يطلع منه مشد للصدر، مع فتحة كبيرة حول الصرة، كل هذا فوق ساقين سمينتين.

كان نور "الإسبوت" الأحمر يضرب شعرها من أعلى، وينزل فوق وجهها المأزوم بالمساحيق العديدة، ذات الألوان المختلفة المتمازجة، وكأن وجهها ذو الشفتين الغليظتين ميدان حرب، أو فكرة فاشلة لإعلان يروج لـ: united colors of benetton.

كانت الراقصة - الهاربة من كفر الشيخ كما شرح لي اللول - تستعرض فكرتها عن الإغراء أمام الكاميرا المشرَّعة، بينما صدحت إحدى أغاني المهرجانات، وهي تضبط الإيقاع بكرشها الممتد وثدييها الثقيلين، ولوهلة، شعرت بألفة مع وجهها: فحين تبتسم، كانت عيناها الضيقتان تزدادان غورا، بينما تتسع الشفتان الغليظتان العريضتان عن أسنانها، وتلتهم وجنتيها الكبيرتين وجهها كبوادر مؤخرة ضلت الطريق في طبوغرافية هذا الجسد. بدت لي مصرية جدا، وذكرني

ذلك برسومات حجازي تحديدًا، والتي كنت اراها في مجلة سمير، حين كان يرسم تنابلة السلطان، أو في كاريكاتورات مجلة صباح الخير، التي كنت أرى نسخا قديمة منها عند الجيران.

لا تزال تتهادى كفرس النهر في تلك المساحة شبه الواسعة التي أغلقها اللول من ردهة منزله بالألوميتال، ووراءها قماش أسود معلق على الحائط بشكل جعل له ثنيات وتجاعيد، ورش فوقه كمية مخيفة من الترتر الذي عكس النور الأحمر بدوره، إضافة لـ"سبوت" أخضر صغير ألقاه عليه اللول من الجانب.

"بصِّيلي.. أيوة.. الضحكة بقى".

هكذا كان اللول يوجهها، وهي تستمع لكلماته حرفيا، فاللول، المخرج التليفزيوني ابن القاهرة (كما تتخيل)، سيكون منقذها من جحيم العلب الليلية، لتنطلق في سماوات الفندوم والليل. كان اللول قد التقطها، هي وثلاث راقصات أخريات، يقبعن بالخلف، خلال جولاته في علب الليل، ولمعت في ذهنه فكرة بارعة عن تسجيل شرائط رقص شرقي لهن، ووضعها على اليو تيوب والاستفادة من الترافيك على الموقع.

"ميتين جنيه"

هكذا أخبرني اللول عندما سألته عن أجورهن، وعندما قرأ على وجهي شيئا هتف في وجهي:

"مرضيين يا عم! اطلع أنت منها بس!".

ثم شرح لي عندما هدأ، أنها بالفعل فرصة لهن ليظهرن في قنوات هريدي وبيلودي، القنوات التي تهتم بالطبقة الفقيرة والمتوسطة الدنيا، والتي تسهب دائما في إعلانات علاج العجز الجنسي والسكر والروماتيزم وخلافه بالأعشاب، إضافة لأكياس الجل والعطور التي لن تكلفك أكثر من 25 قرشًا.

"يعني هما صوفيا وقناة التت! إيه يا عم!".

يقولها لي متبرمًا في نهاية الحوار، راجعا بشكل مفاجئ للنبرة التي بدأ بها الحديث، حاولت أن أصحح له المفاهيم، وأني لست مبعوث العدالة الاجتماعية لأرض مصر، والحق أنني تفاجأت برخص المقابل، وأظن أنها مهارة منه أن أتم الموضوع بمثل هذا المبلغ.

"أنا اللول يا عم!".

يقولها لي متباهيا.

لا يزال اللول يوجِّه الراقصة، سوسن كما قالت لي سابقا. كنت واقفا بجوار اللول بلا أي كلمة، أحيانا أقول له شيئا وأشير على شاشة الكاميرا أمامه. لم تسأل الفتيات عن سبب وجودي وتمسكت

أنا بالغموض البناء، للدرجة التي دفعت إحداهن للهمس لأخرى من وراء ظهري:

"يكونش المتنشج يا بت؟".

تنهي سوسن، كما قالت لي اسمها، فقرتها بما يسمونه "القصعة" ثم تفرد ذراعيها وتميل بوجهها في محبة، مبتسمة في صفاء، وهي تتقمص صورة البنت الكيوت.

"هايل يا فنانة.. هايل...".

يصفق لها اللول محمسًا، ثم ينادي، دون أن ينظر وراءه:

"فوفا.. يالا اجهزي...".

إذا ما اعتبرت اننا في بلد متدين بطبعه، واننا يجب أن نقسم الناس ما بين فسطاط الكفر وفسطاط الإيمان، وبما أن المؤمن- كما تعرفون- هو "كيِّس فطن"، فيمكننا القول إن أغلب متابعي نيفين هم من عتاة الكفرة.

يتصل بها الرجل هائجا ويقول أشياء عن الوحشة والاشتياق وما إلى ذلك، وتجيب هي بالنبرة التي تعني "فكك مني"، وعندما يتمادى في الطلب إلى حد اللزوجة -كالعادة- تقول هي بنبرة مهيِّجة:

"طب بص يا ميشو (يمكنك وضع اسم التدليل المناسب لكل اسم في كل مرة)، أنا في إيدي حاجة كده، كلمني بعد اتناشر.. ماشي؟".

بالفعل يستجيبون، بعضهم يحاول إطالة المكالمة قليلا ولكن الكل يستجيبون في النهاية، وتبدو النهاية مسلية قليلا حين يتألق التليفون، في وضع السايلانت، بدقات متتابعات أملاها الشوق والحنين، قبل أن يتألق ثانية، أحيانا، برسائل فيها من العتاب أو الغضب، أو حتى تقرير صريح مثل:

"عايز أحطه".

الأمر بالنسبة لنيفين لا يتعدى المضاجعة أو الاثنتين، وبعدها ينتهي الأمر. كانت على وشك أن تضع نظرية عن من هم أكثر اهتياجا وتصميما: من يحلمون بها أم من نالوها بالفعل؟! كانت تميل للمجموعة الثانية، في بعض من نرجسية مفهومة، ممتزجة بتقدير واقعي عن الرجال الذين يتمسَّكون بالفرص، ولكنها رأت أيضًا أن حكمة الحياة المتمثلة في السعي وراء الجديد هي حقيقية جدا، ولولاها ما كانت هي نفسها تفعل نفس الشيء.

في أيامها الخليجية، وقبل أن تأتي لقاهرة المعز، كانت فتاة ملتزمة بشكل ما. أو هكذا تحب أن تتذكر عن نفسها، ولكنها في ذروة الحياة الجامعية، بدأت علاقة كاملة مع زميل لها أتى من "إنجلترا"، وهذا بالطبع يفضله عن رفاقها المصريين المحليين "المعفنين". ومن ساعتها وهي تستمتع باللعب هنا وهناك، في أوقات تهدأ قليلا، خاصة في بدايات زواجها، وفي أوقات تنشط كثيرًا، ولا توجد "خاصة" هنا.

وكما ترون، فهي في حالة غرام وانتقام مع هذا الإعجاب المفرط بها، فكانت صدمة ما أن تستوعب أن كل الرجال الذين يرونها هم إما يريدون مضاجعتها بشدة تتفاوت من الإصرار إلى الإصرار مع ممارسة العادة السرية، أو ذلك الرجل الستيني الذي ينتمي لزمن الفن الجميل، الذي قال لها بابتسامته البوتوكسيه كوجه "الجوكر" في عالم بات مان، إنه يريد أن يلعقها.

"أفندم؟".

كريزة ضحك انتابتها عندما أكمل الرجل بأريحية تامة أنه لا يريد شيئًا إلا هذا، لأنه فقد القدرة أساسا على الانتصاب.

وما دمنا قد بلغنا مرحلة الضحك على جُمل مثل هذه، فقد مرت نيفين بمرحلة تملُّك هذه القوة وتوجيهها لمصلحتها، "لا قوة بلا سيطرة" مثلما يقول إعلان إحدى شركات الإطارات المشهورة. وبالطبع، من كان لا يحاول، أو يسقط في حبالها سريعًا، فقد كان بالنسبة لها مثليًا جنسيًا إلى أن يثبت العكس، لدرجة أنها علقت بغضب ما على شخص رفضها، ثم اكتشفت أنه يضاجع صديقتها، أن مشكلته أنه يريد ان يكون مثليًا، ولكنه يعاند. يبدو التفسير متعمِّقًا ولكننا، وبشيء من التركيز، يمكننا أن نعرف أن جذور الرأي في "نفسها فيه وتقول أخيه".

المهم أنها قد أكملت نشاطها الجسدي بنشاط كبير، وبما يوحي بثقة أكبر في نفسها، وعلي ذكر التفسير والتنظير، فقد قال لها أحد مثقفي وسط البلد، الذي التقطته من إحدي حفلات مسرح روابط، حاول أن يفسر حالتها:

"أنت نيمفومينياك يا نيفين".

"نعم يا خويا؟".

حاول المثقف أن يفسر لها ما يعنيه المصطلح، تكلم كلاما كثيرا ولكنها قطعت حديثه المسهب بقولها:

"يعني مره لبوة".

وعندما أمنَّ المثقف على كلمتها فرحا بهذا الاختصار المذهل، وضاحكا كالأبله مما حسبه روح دعابة مثالية، كانت منفضة السجائر في الطريق إلى وجهه.

المهم، لم يكن توصيف ما تفعله هو المهم، ولكن سببه: هي تعلم أن مساحة نشاطها امتدت من أول "اقلعي يا مره" إلى "أريد كسًا يحتويني"، من أول العربات البي إم دبليو إلى من يعيشون مع أهاليهم وقد تجاوزوا الخامسة والثلاثين، هي لا تجد لنفسها نوعًا مميزًا، ومن السهل عليها أن تجد سببًا مقنعًا لتنام مع هذا الشخص أو ذاك: شفتاه جميلتان. صوته. طريقة شربه للسجائر. طريقة ارتدائه لملابسه. كيف ينظر إليها. من باب فشخ زوجها. من باب الاحتياط.

حاول أحدهم، وهو يتقمص شخصية أسامه منير، أن يشرح لها أن السبب في هذا هو عقدتها الدفينة تجاه والدتها، واستعان بما ذكرته هي عن مغامرات والدتها الوحشية التي أحست بها في البلد الخليجي، ولكنها لم تقل له إنها هي من ابتكرت هذه الحكايات لتسمعها إياه، عندما أحست أنه يحب السيدات الأكبر سنًا.

هي ببساطة لا تعرف السبب، ولا تعرف لم تزوجت تامر من الأساس. كانت تراه شخصًا مائعًا: في صوته وفي ملمسه وفي حركاته. العجيب أنه لم يكن هكذا في الجنس، وكانت هي تحرص على ذكر هذه الحقيقة لكل من ضاجعها، فالغالب يصدقها، من باب الانبهار بتلك الساقطة التي تمارس الجنس مع رجال آخرين بغير احتياج، أو لا يصدقها من عاشرها قليلا بعدما يكتشف ولعها المؤرق باللعب. ولكنها الحقيقة على كل حال.

تزوجها تامر لأن أباها غني، ولأنه لا يزال يملك الخيوط التي يمكن شدها في الخليج، تامر يسمع كلام أمه كثيرا، تامر يمكنه أن يأخذ من مدخراتها أحيانا ليكمل ثمن العربة الليكساز الجديدة.

"تامر ده عِلق".

كما قالتها لي في إحدى الليلتين التي قابلتها فيهما، لا تعرف هي لماذا تزوجته، ولكني أعرف أنها تزوجته لأنها لا تظن أنها تستحق أفضل من هذا.

تتجاهل الرنة الأخيرة، وتتناول الموبايل لتضغط نمرة ما، كتب تحتها بخط رديء، ذو لون أزرق باهت:

"علي لوزة".

"الجدع ده شكله كُفتس".

كانت هذه هي العبارة التي طاردت اللول منذ حداثته. تسببت المسألة في استغراب في الطفولة، وضيق شديد في المراهقة، ثم لا مبالاة شديدة في الكبر، وحتى إلى استغلال هذا عندما كان يشتري الطعام أو يشرب القهوة في نهار رمضان.

ربما كان الموضوع بداية لفهم اللول أنه بالفعل مختلف عن الآخرين، أو هو رمز له: بنى اللول نفسه من الصفر، اجتهد وحارب حتى دخل معهد السينما، عابرا بمراحل طويلة من القراءة وتقديسها، حتى سخر عادل إمام من ماركيز في أحد أفلامه فسبب هذا له أذًى نفسيا شديدًا، ولكنه احتفظ بحب عميق لنجم طفولته، فصب جام غضبه على يوسف معاطي. جاء اللول من المنصورة، المدينة التي كان يراها أكثر مدنية وكوزموبوليتانية من فيصل، وهي مقاربة تبدو عجيبة للوهلة الأولى، قبل أن ينحاز لها العقل الرياضي.

ويعرف الناس عادة اختلافه عنهم، بصورة تبدو أحيانا أقرب عدوانية وحادة، فعندما نجلس على القهوة، ساحة لقائنا هي وبيته، وعندما يتكلم، تنطلق انفجارات صغيرة متتابعة في النبرة الحادة، التي تُسمع رواد القهوة أغلب ما لا يحبون من شخص له مثل هذا الوجه المشتبه فيه. يقاطع بعضهم ويتدخل في الحديث ليقول أشياءً مثل كراهية النادي الأهلي أو تفسير لِمَ تفتح بعض المحلات في نهار رمضان. بالطبع هو لم يكاشفهم بكل ما لديه - والحق أن لديه الكثير- لكي لا يصموه بالكفر والهرطقة. كانت هي النقطة الوحيدة التي لم يرجو استفزازهم فيها على الرغم من استمتاعه بإطلاق كلماته وملامحه عليهم كلعنة إغريقية. هي ذات النشوة الخبيثة التي تعتري الإنسان حين يكشف عن جرحه المتقيِّح لعيون بعضهم.

ربما ينجذب بعضهم للمجادلة وربما لا. قد يكتفون بإطلاق دخان الشيشة من الأفواه والأنوف مثبِّتين أنظارهم على صفحة الطاولة التي تستقر فوقها أوراق الكوتشينة ليتكلم أحدهم متظاهرا بعدم الاكتراث:

"بصرة..".

ومثلما تعتريهم تلك الكراهية المسالمة، يعتريه احتقار تجاههم باعتبارهم جهلة وأبقارًا منحتهم الأقدار نعمة العيش سهوًا. يثرثر ويثرثر محاولا، بلا كلل، أن يفهمهم مدى حقارة وضآلة وجودهم فوق سطح البسيطة، بينما أنا أتفرج مبتسمًا، ويشجع هذا بعض

الرواد من طرف خفي، حاسبين إياي حليفًا مستترًا.

يبدو الأمر عجيبًا، فبدلا من صيغة "مهرج القهوة" المعتادة، التي تتحالف فيها الجماعة على شخص عثر الحظ يكون فكاهة الليل ومسخته ليُسلخ بلا هوادة بألسنتهم وضحكاتهم، جاء هذا الوغد الضئيل ليصطادهم هو بسحنته العجيبة، ويغمرهم بكلامه غير المفهوم وسخريته اللاذعة.

حاول الغيورون من رواد القهوة إجباره على ترك القهوة بخطط معتادة أليفة مثل رشوة القهوجي لتأخير طلباته أو معاملته بغلظة، ولكنه كان دائما مصرًا ومتشبثًا. ينزل في بداية الليل، في الساعة الثامنة، ليطلب كوبًا من الشاي بالحليب، ليتبعه بما تيسر من المشروبات التي تقدمها القهوة. يطلب ببذخ لا يتناسب مع ملابسه التي لا يهتم ببهرجتها، وبالتالي صار منطقيًا أن يتجاهل صاحب القهوة تعليقات الرواد الدائمين بضرورة طرده. صحيح أنه تضايق من اللول عندما عرض نظريته عن جشع أصحاب المقاهي، وكيف أنهم إن ازادوا سعة الكوب فسيكسبوا أكثر، ولكن مثل هذه المضايقة لم ترق للمستوى المطلوب لكي يطرده شر طردة.

أضف إلى ذلك عندما آتٍ أنا وعبد اللـه - الذي كان اللول يعامله باستخفاف ما، وكان عبد اللـه يعتبره مجنونًا - لرؤيته، فتنطلق دورة المشروبات حامية متألقة. يجلسون في ركنه لتنطلق بعض المناقشات

التي لا يفهم أهل القهوة منها شيئًا، وبالتالي صاروا يحجمون عن رمي أذنهم إلى حيث تجلس ثلة الغرباء. نبدو لرواد القهوة من العيال الجداد، فاستغرب بعض الرواد منهم أن كيف نصادق هذا الغريب. أعلم أن بعضًا من أصدقاء اللول، ممن تيسَّرت بهم الحال وصاروا يمتلكون سيارات تلفت الأنظار وملابس لامعة، يأتون لزيارته في أوقات متقاربة. ليس بانتظام، ولكن بتصميم.

صار الأمر هاجسًا، لابد وأن نعترف. ومن أجل مزيد من الصراحة لابد وأن نقول إن الأطراف المتقابلة قد تعوَّدت على الأمر. لم تستسغه تمامًا ولكنها تعودت عليه. أخذت الجماعة تعزِّي نفسها بليالي فوز الأهلي بالدوري أو الكأس أو بطولة أفريقيا للتنكيل باللول، خاصة أنه لا يتخلف عن الظهور في تلك الليالي المباركة شأنه شأن أغلب مشجعي الزمالك. بالطبع هو لا يعترف بصحة بعض الآراء التي ينقلها بعضهم من الجرائد والمجلات عبر ذاكرة لا تدرك حقيقة ما تحفظه، ولكنه، في تلك الليالي المباركات، ليالي فوز الأهلي بشكل واضح وصريح، يمنحهم كل الوقت والمتعة بأمانة وعدل وطيبة نفس.

يجلس في القهوة حتى الساعة الثانية عشرة مساءً، ثم يمضي إلى حيث لا يعلمون. في مرة حاول حمادة القهوجي سؤاله عن مكان بيته، ولكن لكمته نظرة متشككة وسلخته أسئلة معاكسة فآثر السلامة. كل

يوم يأتي من المجهول إلى تلك القهوة الصغيرة في أول فيصل بدأب نملة، ويعتقد بعضهم أن مقهاهم سيأخذ كفايته من العقاب السماوي المتمثل في الرجل، أو أن اللطف الإلهي قد يصيب قلب الرجل بالضجر، فتحل سحابته السوداء عن رؤوسهم في النهاية.

"كفتس وزملكاوي.. يا ساتر!".

هكذا قال أحدهم هامسًا لرفيقه، بينما كنت أعبر أنا واللول، سمعه فصاح:

"كفتس وزملكاوي وقصيدة نثر".

وانطلق في ضحك مرح في وسط الشارع.

انحدر عبد اللـه لأب من تجار الرولمان بلي في شارع شامبليون، وأم قريبة له، استأنس الأب سيرتها، ورجَّح أنها لن تقلع كيلوتها لشخص آخر.

حصل أن كان الولد الوحيد بعد محاولات فاشلة، فسرَّت الأم فشلها بأعمال مارستها بنت عم الأب التي كانت تريد أن تتزوجه، وظلت مقتنعة بذلك تماما حتى بعد أن تزوجت ابنة العم، وانجبت طفلين. كانت تقول بيقين تام عبر التليفون، في المرات الكثيرة التي زرت فيها عبد اللـه عندما كنا أطفالا:

"لاقيت يا ختي مية مرشوشة ع العتبة".

وبما أنه الابن الوحيد، لم يكن تخمين ما سيحدث صعبًا، كان أكثرنا تدليلا ونقودًا في أيام حداثتنا، دائما يرتدي الليفيس وأحذية الريدوينج والكوليدج، ويصرف ببذخ في إسطبلات ركوب الخيل التي كنا نذهب إليها في الاعياد، وهو من النادرين الحائزين جهاز الفيديو ماركة قاريونس والمتردد الدائم على محل عبده لتأجير

شرائط الفيديو في أيام الخميس، وهو الذي يقول لنا إن هناك نجمًا هوليوديًا جديدًا يدعى توم هانكس. جر هذا عليه حقد الكثيرين، منهم جوافة الذي كان يتخانق معه في العديد من المرات، ولكن مرت السنون وحدث ما حدث، فصرت أنا، من كان يضرب بي المثل في الذكاء، أكتب قصص السكس في المنتديات، وصار عبد الله مدمنًا، وصار جوافة مثالا يحتذى تؤنبني به خالتي، وربما الحاجة الطيبة أم عبد الله.

بدأ هذا عندما كنا في السادسة عشر أو الخامسة عشر تقريبا، زرنا قريبًا منحرفًا لعبد الله يسكن في الميدان الواسع، ولم يكن والداه هناك. كان يكبرنا بخمس من السنين، ذو عينين جاحظتين وشارب خفيف، وجبهة بدأ الشعر ينحسر عنها، وسلسلة ذهبية. قدم لنا سجائر ملفوفة، في الإفطار بعد رمضان، حين كان إعلان دريم لاند الذي يقتبس لحن وطريقة رشيد طه ينبعث من تليفزيون دايوو في الصالة البعيدة. كانت السجائر الملفوفة من البانجو، لأن الحشيش قد عز في مثل هذه الأيام المفترجة، واتجه الجمهور الى البانجو كبديل وحيد، وصار إعداده للتدخين أشبه بتنقية الأرز، وتفننت المدارس في توضيح مدى انعكاس لون الورقة من ذهبي إلى أخضر على جودته، ولون البذرة وحجمها، كما رافقته، كما هي عادة أي مخدر، الحكايات التي توضح كيف كان شراؤه سهلا ووفيرًا في وقتنا هذا، والتجار السودانيون الذين يمنحون الكثير من

العشب مقابل القليل من المال، قبل أن تبرز حكايات أخرى عن كيفيه خلطه أو غشه بالملوخية.

دخنَّا البانجو بينما انضم بعض من أصدقاء قريب عبد اللـه. لا أذكر الكثير جدا من وقتنا هناك، غير أن عبد اللـه قد تم إيقافه قبل أن يأكل صينية المكرونة بالباشاميل بكاملها، مختليا بها في المطبخ. وأنني قد دخلت فيما يشبه الغيبوبات المتلاحقة، فتحت عيني بعد إحداها، ونظرت وكأنني أشاهد الدنيا من داخل كهف، دخل من فتحته نور وظهرت أمامه كتف بدله سوداء وفوق كتفها رتب لامعة، وبما أننا كنا نعيش في تلك الأيام البعيدة السعيدة أجواء تزدان ببرامج مثل المواجهة ووراء القضبان، فقد اشتغل دماغي المخلوط بالقنب في تخيلات القبض علينا وإيداعنا السجن والفضائح التي سوف نمر بها، غير أن قريب عبد اللـه لاحظ رعبي فيما يبدو، فضحك وهو يربت على صاحب البدلة البوليسية وقال صائحا:

"أقدم لك الرائد مصطفى.. بيضرب معانا".

كان هذا هو البديل الوحيد، في ظل تعالينا على شرب أدوية الكحة - التي كان جيل قريب عبد اللـه رائدًا فيها - مثل البلمورار والتوسيفان والكوادفين، فسميْناها دماغ البوابين، في مكايدة واضحة لجوافة الذي اتجه لها في فترة قصيرة من الزمن، وكنا نصطنع القرف حين نرى آثار الجريمة من زجاجات ملقاة على جانب شارعنا

الطويل العريض. كانت لدينا مشاعر مختلطة ما بين الفضول والذعر من "حُقن" الماكس التي كنا نراها ملقاة هنا وهناك خاصة عندما كنا نزور المعادي كمستكشفين لا تعوزهم الجرأة، خاصة تواتر الحكايات من الجيل الذي سبقنا عن المطرب الشهير عماد عبد الحليم، الذي اشتهر بأغنية "ليه ليه" المأساوية وبموت يشبه الأغنية.

كانت بالفعل أيامًا سعيدة، كانت المسافة ما بين الواقع والأحلام، وربما كانت حداثتنا السبب في مثل هذه البهجة. كانت أيام تحوَّلت فيها ما يسمَّى بالقنوات الفضائية، التي تشبه حكايات ألف ليلة وليلة، إلى واقع يبدأ في التحقق، بعدما عشنا أيام برامج الفن الشعبي والفقرة الزراعية، وكان أقصى تحديث المنوعات هو اليوم المفتوح في أيام الخميس والجمعة. كانت الأيام التي بدأنا فيها نشاهد الإعلانات وهي تتجه لتكون أكثر تطورًا، ذات صورة نقية وألوان زاهية، عرفنا بداية المنتجات المتنوعة، وانقسمنا فرقًا فيمن يحب شيكولاتة سامبا الزرقاء، ومن يحب سامبا الموف كانت الأيام التي منح فيها القديم أجمل ما يملك، ربما قبل مواته التام، فشاهدنا شاندو وماندو وساندو، وانتشرت كلمة الأشكيف لوصف كل مدرسينا المخيفين، وملكت آذاننا تيترات مسلسلات أرابيسك والسيرة الهلالية، وحاولت حياة عبدون أن تجاري الموجة على قدر ما منحها اللـه، فقد كانت تقول تشبيهات مثل "زهرات وزهور الأسرة" أو "ريتشششششش

فوستر وأرك فوسترر" قبل سوب أوبرا الجريء والجميلات التي تابعها بعضنا بولع، ليس من أجل الدراما بل من أجل الجميلة بروك، بالضبط مثلما كنا نرى فالكون كريست لأجل خاطر الجميلة بيدج. صعد نجم خالد مرة أخرى، نجم طفولة ديدِّي، بأغنية عيشة واغانيه مع فاضل الذي هو فضيل ورشيد طه، الذي كان ملجأ دائمًا لمحبي الاختلاف هو والشيخة ريمتي لسباحي المسافات الطويلة في موجة موسيقى الراي، وبالطبع كان رشيد ملجأ دائمًا لكل من يحسب نفسه يمتلك صوتًا جميلا عن طريق تجعير لا يمت للمغنى بصلة. الشاب مامي والشاب مش عارف مين وأي أحد آخر كفيل لقب "شاب" قبل اسمه أن يجعله مادة قابلة للاستماع. كانت الأيام التي تحول فيها عمرو دياب إلى أيقونة رسختها "تملي معاك" بعد تخلصه من منافسات محمد فؤاد على العرش، واختفى فيها علاء عبد الخالق وأمين سامي، هو ومايكل جاكسون الذي اتم انتصاره على برنس ليس فقط بالبوم دينجيروس ولكن بالبوم هيستوري.

كانت أيام جميلة بشرنا بها بأيام سعيدة قادمة، فمصر تتغير ودريم لاند في الطريق، مثلما تغيرت طقوس مشاهدة البورنو بالنسبة لبعضنا، فتركوا شرائط الفيديو ومواويل مسح الهد ولعبكة الشريط الممغنط في جهاز الفيديو لفضاءات الكمبيوتر والإنترنت الوليد الذي كانت تبيع بعض شركاته أسماء المرور مقابل ثلاثين أو خمسين جنيهًا، فلم تعد هناك الحاجة للاجتماعات الكبيرة، وصار الحلم أن

يختلي كل منا بنفسه، متوحدًا متفردًا في أي وقت. عصر السماوات المفتوحة كما قالوا، هذه الأيام التي كانت أسعد أيام رمضان بالنسبة لي ولكثيرين. هذه الأيام التي جربنا فيها البانجو، ثم أحضرت عبد اللـه وقريبه ليدخنا "الفنكوش"، وهي خلطة من التوابل وورق الجوافة والتبغ حضَّرتها بعناية، ليشعروا بسعادة ما، واقفين في الحديقة الميدان الكبيرة حيث يقع بيت القريب، الذي قال وحدقتا عينيه تبدآن في الاهتزاز، وجفنان في التراخي:

"الإستف ده عدالة".

كنت أضع يديّ في جيوبي وأحاول ألا أنظر إلى الرجل العجوز الواقف أمام ماكينة الص[illegible]ي.

كان الرجل يعاني وهو يحاول التعامل مع الماكينة، وينظر إليَّ وإلى المارة حوله في تشكك، اعرف نوع "إنتوا عايزين تسرقوني" هذا، ولا أستطيع أن ألومه عامة. كان العجوز يمتلك كل مستلزمات المواطن من ملابس قماشية وتشكك دائم.

صفَّرت الماكينة مرة ثانية مما يعني أنه قد أدخل كودا خاطئًا مرة أخرى، ترددت قليلا قبل أن أقول:

"محتاج مساعدة يا حاج؟".

زغر لي وقال بحنق:

"لا متشكرين!".

"طيب".

صفرت الماكينة مرة أخرى للمرة الثالثة، مما يعني، بالنسبة

لي، أن الكارت قد تم إيقافه. انتظرت بصبر حتى يكتشف الرجل ما فعل بنفسه، ولكنه بدأ في النظر حوله بحنق، قبل أن يضطر للنظر لي مباشرة قائلا:

"باين البتاع ده اتحشر جوا".

"آه.. طيب كده باظت.. متشكرين يا حاج".

تركته ورائي دون أي إحساس بالندم، ولم أرد على سؤاله عما ينبغي عليه فعله، قبل أن يسب لي وللجيل البايظ. كنت أعرف أنه بعد قليل من المشي في الشارع سأجد ماكينة أخرى قد تكون شاغرة، كنت كسولا لأنني لم أقصدها من البداية.

وصلت إلى حيث الماكينة التي كانت شاغرة بالفعل، وقفت أمامها ووضعت كارت البايونير. ظهرت أمامي الحقيقة العارية:

"رصيدك الآن 0،00".

لم يتم تحويل النقود بعد. وقفت حائرا في الشارع، لابد وأن أرجع للخالة بنقود الكهرباء، ولا شك أنها ستنتهز الفرصة وستطلب مني بعض الخبز والخضراوات، ولكن الأصفار لا تنبئ بذلك.

لعنْت روسيكا في سرِّي، لقد بعثت لهم إيميلين وتكلمت معاها مباشرة، ما الذي يؤخر الموضوع إلى هذا الحد؟ وضعت يدي في

جيب بنطالي وتحسست الجيب الفارغ تماما.

"خلاص يا أستاذ؟".

يقول لي الشاب المتحفز الواقف ورائي بصحبة إحدى البنات ذات الحجاب والأظافر الطويلة المدهونة. يبدو شرسا قليلا بذلك التي شيرت الذي يكشف عن عضلة باي سيبس متضخمة. لا يمكن أن يُبقي الغادة الحسناء واقفة في الشارع كما تعلم. نظرت إليها بشكل خاطف مدرب، ورجعت إليه ببصري قائلا:

"آه اتفضل".

أجد متعة كبيرة في تخيل وجوه النسوة أثناء الذروة، ويكون الأمر لطيفًا حين يطابق الواقع الخيال في المرات التي حالفني فيها الحظ. ويمكننا استخدام هذا والمادة الخام في القصص الجديدة. تنحيت جانبا وتركت الشاب الذي يتصرف باعتباره ثورًا بشريًا - والحق أنه لم يكن كذلك - يعبر ممسكا بيد الحسناء المحجَّبة خوفًا من أضعها في أحد الأجولة وأعدو. مشيت بضع من الخطوات وأنا أرجع للمعضلة الكبيرة: ماذا سأفعل؟ حسنًا، النقطة الإيجابية أن النقود قد تم اعتمادها بالفعل، يمكنني أن أقترض بعض المال من أحدهم. من؟

اللول؟ لا.. بعد تجربة الألفين من الجنيهات هذا غير مستحسن. عبد اللـه؟ نقوده كلها يصرفها على الشم.. إذن!.

قاطع أفكاري صوت جرس الموبايل، نظرت إلى شاشته، كان آخر رقم يمكنني أن أتوقع أن يتصل بي.

كنت واقفًا في الشارع الطويل بعد أن استلمت مكالمتها.

"أيوه يا أحمد"

"أيوه يا نرمين.. غريـ...".

"أنا بنت خالك".

"بنت خالي مين؟".

"مصيبة.. تعالالي حالا..".

حاولت أن أفهم ما يجري، ولكنها أنهت المكالمة بسرعة البرق بعد أن اخبرتني كيف اصل لها.

وقفت حائرا. ماذا يمكنني أن أفعل؟ لم أجد في دماغي سوى عبد اللـه. رفعت الموبايل وطلبت رقمه، صوت رنين، ثم..

"أيووووة يا بونتي".

"أنت فين يا عم؟".

"أنا ف المعادي".

"أنت فاكرك جنبي...".

"لا.. خير".

"مفلس ولازم أروح أقابل مزَّة".

"وأنت خدت المعاد ليه أساسا ما دام مفلس يا عرص؟".

"هي ف مشكلة وكلمتني فجأة".

"طب أعملك إيه أنا دلوقت؟".

"مانا مش عارف بقى".

"المشوار ده يتراح متروا؟".

"يعني شوية منه".

"طب ما تزوَّغ؟".

"ممكن دي.. بس أعمل إيه فِ الباقي؟".

"طب أقولك.. أنت لسه معاك السجاير المستوردة اللي جبتهالك؟".

"آه المارلبورو الأحمر..".

"بعها".

"مين؟".

"زي ما باقولك كده.. شوف أي وأحد معدِّي وبعها فرط...".

"أنت ح تهرج؟".

"وأنت بروح أهلك ح تتشرَّط؟ جرب ولو ما نفعش ده روح بعها لمحل، الشارع شغال بيع سجاير مارلبورو فرط".

وبعدها بخمس دقائق، لمحت شابا عابرا الطريق، قبل أن أسأله، سألني هو وعينه على العلبة:

"ممكن سجارة يا كابتن؟".

وبعدها بعشر دقائق، كنت أمام أحد المحلات، والبائع ينظر لي في شك ويقول:

"ما بنشتريش يا استاذ...".

"مانت بتبيع فرط آهه" وأشرت لعلبة مارلبورو مفتوحة أمامه.

"صاحب المحل ما قاليش أشتري".

سمعت في محلين اثنين مثل هذه الردود، وبعد وقت غير قليل كنت اجرب هذا المحل. تناول مني العلبة وفتحها ونظر فيها من كل الاتجاهات والزوايا ثم نظر لي قائلا:

"العلبة دي صيني..."

وبعد عبث قليل، منحني سعرا قليلا للعلبة ذات الثماني عشر

سيجارة، ولكنني لم ابالي. قبل شهور قليلة، أكلت على عربة الفول وتظاهرت بنسيان المحفظة، وقبل شهور أخرى كنت قد اقتربت من سائق الميكروباص في الفجر واخبرته أنه لا يوجد بجيبي مال. هكذا فعلت مع أحد حراس المترو مرتين أو ثلاث، وقبل شهور أخرى كنت استغل الساعة الأولى لفتح ذات المترو لاعبر من البوابات بدون أن يوقفني أحد.

في أيام تخطر هذه الأيام على بالي، وأعلم أنني لا اتذكرها باعتبارها الماضي الذي تجاوزته بل الحياة التي اعيشها، ويداخلني شعور متداخل بالعار والغبطة في آن واحد.

تحركت بسرعة وأنا ادس النقود القلية في جيبي، لا يوجد سبب لتحمسي لمقابلة نيفين غير اماني بمضاجعة جديدة، لم اخف من شيء تدبسني فيه، لأني مفلس اصلا، ولم اخف من معركة محتملة، لأن الحياة علمتني أن خير اخلاقها الجبن، وخير خير اخلاقها أن تكون صريحًا في اعلان هذا الامر، أحيانا.

كانت معركة مجيدة، وقف فيها سائق التاكسي ليسب الدين لزميله صائحًا:

"يا بن المتناكة!".

ورد عليه الآخر فورا، في سبة بايلولوجية معجزة:

"يا بن المتناكتين".

وعندما بدا وكأن لا أحد سوف يتدخل للحؤول بينهما، اضطرا للاشتباك في نهج مصري صميم، يمزج ما بين المصارعة الحرة، والملاكمة، وبعض من الجودو الاعتباطي.

لكمتين وبعض من الشد والجذب، ليفقد أحدهما منظاره الطبي وليعود أحدهما للعربة بعدما تدخل الناس أخيرًا على خلفية من أصوات بعض الكلاكسات البهية. كنت قد سمعت صوت تهشم شيء ما ورائي، وعندما ألتفت، كانت مرآة أحد التاكسيات مهشمة ومائلة إلى أسفل. انصرف الاثنان فجأة بلا صوت، دون أن ينظرا

حولهما، وكأن ما حدث هو مجرد "انسرت" إعلاني ما بين فقرتين، يعود للشارع ازدحامه ويمضي الناس كل في طريقه.

في يوم من الأيام، قال لي جدُّ عبد اللـه، صاحب محل الكباب العتيق، عندما رأينا خناقة تتحول لدوامات من الناس الذين يحاولون التفريق بين الخصمين:

"يا بني الخناقة اللي فيها حد بيحوش ما تبقاش خناقة".

لم يتدخل أحد في هذه المشاجرة، ولكنها بدت لي ككل شيء في المدينة: شبه شيء.

دلفت إلى الشارع الذي لا يكل ولا يمل، كل الذين يمضون داخلين الشارع أو خارجين منه، وبعضهم يحمل أكياسًا ورقية تحوي ما ابتاعه من لزوم المظاهر. خرجت هذه المباني من جوف الأرض لتخترق السماء سريعًا، تاركة ما بينها فراغات باردة وعدائية، رغم كل هذه الأنوار والأشخاص الذين يسعون فيها. الجزيرة في وسط الطريق بكل افتعالها وابتذالها، مدينة "العيال الجديدة" ومنحدري الخليج، هؤلاء الذين يعرفون جيدًا كيف يكسبون القرش وكيف يدافعون عنه بشراسة قرش. مدينة البوابين الذين كانوا أقدم من العمائر، وشيَش التفاح، والبلاستيك والزجاج.

قالت لي اسم قهوة من تلك القهاوي المعتادة، كافتيريا كما كان

يقولها الباشمهندس، أو كافيه مثلما يقولها العيال الجديدة تخصص "شيلانترو" عوضا عن "سيلانترو". أخذت أرمق الواقفين أمام القهوة بينما أمشي ببطء. استرعى نظري فتاة ترتدي نظارة سوداء في عز الليل وواقفة بجوار شاب، أشحت ببصري عنها ولكنها قالت:

"أحمد!"

نظرت لها ثانية، ووجدتها هي. لم أفهم لثانية لأنها كانت بلا حجابها الإسباني المعتاد، وشعرها الطويل المموَّج حول وجهها، والمنظار الأسود الكبير. تلتفت للشاب بجوارها وتقول:

"متشكرة أوي".

"على إيه.. بس تحبوا تشربوا معايا حاجة؟".

"ربنا يخليك.. لازم نمشي".

"أقعد معانا يا أستاذ أحمد بقى شوية".

يقولها اللزج لي بينما هو متجاهل لرد نيفين. قلت له:

"معلهش، لازم نمشي".

ينظر لي نظرة كلب البولدوج الذي يحس بأن كلبًا بلديا قد انتزع منه قطعة غالية من اللحم. يتمالك نفسه ويلتفت بابتسامة عريضة لنيفين ويقول لها:

"طيب ح تحتاجي التليفون؟".

ترتبك نيفين للحظة، تمد يدها إلى داخل جيبها وتخرج موبايل نوكيا قديمًا وانهمكت في فتحه وإخراج شريحة الموبايل منه. بدا لي ارتباكها شيئًا غريبًا في لحظة واحدة. نظرت لها وكأني أنظر لامرأة لا أعرفها.

تعطيه الموبايل، يكمل بلزوجة:

"ومحتاجة النظارة؟".

تنظر إليه صامتة، بينما أنا لا أتكلم. يبدو الشاب من مدينة الزجاج والإسمنت مدربًا مثلي، هو يعرف أنه لو ترك رقم هاتفه فلن تحادثه، وما دام لم يحدث شيء بينهما - كما أتخيل - فلن يحدث مطلقًا، في الغالب. قلت لنفسي إنه مخطئ، ماذا يضير لو ترك الرقم، ما دمت لن تنتظر اتصالها، فما المشكلة في ان تترك نمرة ما، مطبقة بشكل عفوي داخل بنطال، قد تعثر عليها يدها في مكان مختلف، والأهم في زمان مختلف. ما الذي ستخسره؟

خلعت النظارة السوداء، والتفتتْ لي. هالتني دائرة سوداء تلتف حول عينها اليمنى الجميلة.

يلتفت السائق وراءه، يقول لنا:

"الأجرة تلاتة جنيه إن شاء الله يا حضرات".

يسود صمت حذر، ننظر لبعضنا، بينما تتظاهر نيفين بعدم الاكتراث، أخيرا تحول انتباه بعض الناس من عينيها المتورمة. أخيرا يقول واحد منا في آخر الميكروباص، ممصوص الجسد، نابت اللحية، ذو منظار طبي حديدي يبدو عليه القدم:

"ليه يعني يا أسطى!".

بدأ بعضنا في التشجع، تعالى صوت آخر.

"أيوه يا أسطى ليه؟ إحنا بنركبه باتنين".

كان الميكروباص يغادر في طريقه للميدان الكبير، ينظر السائق وراءه بعدوانية ويهتف:

"ده من إمتى ده؟".

يجيب أحد الشباب الثوري المتحمس:

"لسه راكبه إمبارح باتنين جنيه".

ينظر له السائق ويكرر:

"اتنين جنيه؟".

"آه اتنين جنيه".

"طب إذا كان كده بقي، نرجعكوا وخدوا أبو اتنين جنيه".

بدأت هتافات "ليه كده يا أسطى" و"هو فيه إيه؟" و"استهدى بالله بس". وجدتها فرصة سانحة أن أميل عليها وأسأل:

"طيب وحنطلع دين أمه إزاي ده طيب؟".

نظرت لي نظرة ألا يجوز أن نتناقش في مثل هذه الأمور داخل ميكروباص مزدحم، صمتُّ تماما وفكرت لثانية أنها غلطتي لأنني لا أحوز مالا كافيا يجعلنا نركب عربة أجرة مريحة، ثم قلت لنفسي هي من سُرقت أيضًا فلا يمكن أن ألوم نفسي وحدي.

كان السائق يلف عائدًا مرة أخرى إلى مساره الأصلي، بعدما تدخل بعض من ذوي المروءة معتبرين أن فارق الجنيه لا يشكل عبئًا كبيرًا، ووجدت نفسي أدفع ستة جنيهات ليد الرجل الجالس فوق الأريكة أمامي، بينما أنا جالس كسدٍّ عازل ما بين نيفين وباقي الركاب في مقعدها بجوار النافذة. بدا وكأن الرجل ذا المنظار الطبي الحديدي سيكظم غضبه، ولكن الشاب المتحمس قال، بينما هو يدفع

الثلاثة جنيهات، لجاره في الأريكة:

"البلد دي مش ح تنضف على فكرة".

وهكذا صاح الرجل ذو المنظار الحديدي:

"وأنا مش دافع غير اتنين جنيه!".

"يعني إيه يعني؟" يقولها سائق الميكروباص الشرس.

يتدخل بعض الركاب مرة ثانية، يعلن أحدهم أنه سوف يتحمل فارق الجنيه عن طيب خاطر، وأن الأمر المهم هو أن نصل لوجهتنا. يدفع الفارق ثم يقول بتأسٍ تراجيدي:

"هو إحنا حصل لنا إيه بس..".

غرقنا في صمت ما، الناس تفكر في فروق الجنيه والنصف جنيه والربع جنيه، وبينما تشاطرت أنا ونيفين التفكير فيما جرى لها، وما دوري في كل هذا باختلاف مواقعنا. قبل قليل كنا على ناصية الشارع وأنا أسأل عن الشاب اللزج، فقالت إنه شاب التقطها من شارع بقرب منطقة شعبية.

"هو إيه اللي حصل بالضبط؟ وفين عربيتك؟".

"اتسرقت وانضربت وممعاييش لا فلوس ولا عربية".

"ده إزاي ده!".

"أتعرفت على واد ابن وسخة وخدني عنده الشقة، وبعد ما خلصنا ده اللي حصل".

"طيب ما تبلغي عن سرقة العربية".

"أنت عبيط يا أحمد؟".

"مش قصدي، الفلوس والمحفظة والموبايل يعوّض عليهم ربنا، بس العربية قولي إنها اتسرقت من تحت البيت وخلاص من غير تفاصيل تانية".

"أنا مضيت على مبايعة..".

"....."

"أمال يعني إنت شايف البوكس اللي ف وشي ده من إيه؟ وصوَّروني كمان..".

"هما مين اللي صوروكي؟".

"هو واللي معاه..".

"اللي معاه؟".

"ممكن تخرس شوية؟".

بالتأكيد خرست ساعتها، وداخلني تأهب ما لما يمكن أن يكون دوري في مثل هذه المتاهة. كنت أعرف هذه الأشياء جيدًا: منذ سنين عدة باع عبد اللـه عربته الأوبل فكترا مقابل سبعة آلاف من الجنيهات، لكي يشتري بعضًا من المسحوق الأبيض الذي يحبه. كان من اشتراها منه بلطجي يسكن في المنطقة الشعبية على أطراف الحي، وهو من تعطف أخيرًا ومنح عقد البيع لأبي عبد اللـه مقابل عشرين ألفا من الجنيهات: ثلاثة عشر ألفًا من الجنيهات صافي ربح.

"طيب هو عايز كام؟".

نظرت لي وقد أدركت أني فهمت، الموضوع لن يتعدى مجرد سرقة المال الذي تحوزه في المحفظة والموبايل. لماذا ترك لها الشريحة وبطاقتها الشخصية إذن؟

"عايز خمسين ألف".

"يا بن الوسخة...".

"علشان العربية وكروت البنك والفيديو والصور".

"كروت البنك تلغيها.. إنت إديله الأكواد؟".

"آه..".

"احا..".

"با قولك إيه...".

"طيب.. ع العموم هو آخره أربعة ولَّا خمسة.. كان معاكي كام كارت؟".

"أربعة...".

"احا يا نيفين...".

أكملت هذه الهزيمة الساحقة شعوري بأنني بالفعل لم أعرف هذه الفتاة، ولكنها أكملت بشراسة أعرفها جيدًا:

"ح اطلَّع دين أمه...".

"إزاي؟".

"مش عارفة بس ح اخلِّيه يندم على يوم ما اتولد..".

قلت بحذر:

"حد قريبك ف البوليس؟".

"قريبي إيه بس.. أنا قلتلهم مسافرة يومين.. ما ينفعش حد يعرف ده..".

"أومال...؟".

نظرت لها ونظرت لي. بالطبع أعرف أنها تريدني كجزء من الحل، الذي لا أعرفه بالضبط.

"تسلم الأيادي.. تسلم يا جيش بلدي...".

هكذا تصدح الأغنية داخل الكباريه في وسط المدينة، وكانت الراقصة التي تتميز بشعر طويل وخفيف في ذات اللحظة تتمايل بكل ما سمح به جسدها البدين، كان الكباريه كما ينبغي أن يكون لدرجة أنني شككت فيما أراه: أنوار حمراء وبيست صغير حوله كراسٍ ومناضد استقر عليها بعض الناس المهللين وقد بدا البعض منهم من قدامي اللاعبين والبعض منهم ممن يمكنهم تفحص نيفين كمادة للثني والضغط، سواء ظهر ورم عينيها ولونها الأسود جليا في تلك الإضاءة أو لم يظهر. بعضهم، وبوضوح، من عتاة الأوغاد، إن كان لهذا مقياس شكلي. في ركن المكان سائح خليجي وحيد في وسط عز فيه زوَّار الفجر من الإخوة الأشقاء، فكان محاطا بثلاث من النسوة لم ألمح فيهن غير شعور شقراء أو حالكة السواد مع ما يشبه الطباشير فوق الوجوه، وورائهم باحتفاء شديد باقي الكباريه. كنت أحاول أن أعثر على اللول، وفجأة لمحته في الركن الآخر من الكباريه، يجلس وحيدًا وأمامه زجاجات البيرة.

فجأه تصمت الموسيقى في لحظة بعينها، يهتف كل الحاضرين وهم يقفزون من أماكنهم:

"مصر".

تيتتا تاتاااا.

"مصر".

تيتاااتتتا تا تا.

"مصر".

ثم يعود الصوت غير المميز للأنثي الطروب وهي تغني:

"مصر يا أجمل معنى...".

شددت نيفين من يدها وتوجهت إلى حيث يجلس اللول. كان يجلس وأمامه ثلاث زجاجات من البيرة، لم يبد متوجسًا قليلا من الغرباء مثلما هو دومًا. مرحلة الكباريهات هي مرحلة حاسمة في حياة اللول، أو أنا أسميها كذلك، فلو تجاهلت مراحل اقتناء الكلاب، أو مراحل التركيز مع البلاي ستيشن، فيمكنك أن تتفهم هذه المرحلة التي يمر بها. بدأت منذ سنتين حين قال إنه يعد لسيناريو عن حياة الليل، وكتبه فعلا، ولكنه لا يزال مستمرًا في دراسة هذه الحياة، كما آمل. ربما أكون قاسيا قليلا، لأنه بالفعل يحوِّل جلسته إلى عمل، مثلما كان يفعل بالراقصات. العجيب أنه لا يشرب كثيرًا، وعندما

حاول أن يجرب الشرب، وسألني عن شيء يسْكره ولكنه رخيص ولا يكلف، غير البيرة لأنه يكرهها، نصحته بالميتكسس، التقليد المصري البائس لكونياك ميتكسا اليوناني، كانت ليلة لم ينسها وكان حريصًا على سبِّ الدين لي لفترة طويلة، شاكيًا من منقوع البراطيش الذي أقنعته باقتنائه، بينما أصررت أنا على أنني نفذت حرفيًا ما طلبه مني، وكنت أذكره في كل مرة أنني أنا من شربت ثلاثة أرباع هذه الزجاجة وقتها.

هو الآن يحب البيرة كما ترون.

يقول لنا صائحًا:

"بيرة؟".

"لا يا عم تعال نطلع بره".

كرر وهو لا يسمع بسبب الضوضاء:

"بيره؟".

"باقولك نطلع بره. ماعناش فلوس".

"إيه؟".

"ماعناش فلووووووووس".

كنت أقولها بينما تخفت الموسيقى قليلا، خفت أن يسمعنا أحدهم

ونظرت حولي. كان الكرش الخليجي ينِّقط الراقصة بأوراق فئة العشرة جنيهات وهي تمارس محاولات مضنية للتلوِّي، بينما صوت هشام عباس يستمر في الإنشاد الوطني. قال بصوت أعلى:

"يا عم اشرب قزازتين".

رددت بصوت أعلى وأنا متوجس مما سيلحق بهذا الكرم:

"أحسن نتكلم في حتة أهدى".

"يووووه.. ما توجعش دماغي بقي".

أشار للنادل الذي لم يتأخر أبدًا، طلب لي بيرة أنا ونيفين.

"خير يا باشا".

"عايزينك في خدمة يا لول".

"إيه طيب".

"خدمة كبيرة شويتين".

"يا بني خلَّص وفهمني فيه إيه؟".

"دي نيفين صاحبتي".

لم ينظر إليها إلا بشكل سريع ثم قال لي:

"تمام.. أهلا وسهلا.. هه؟".

كنت أعلم أنه يتعمد عدم النظر لنيفين بعدما أومأ لها بإشارة تحية سريعة في البداية. وضع النادل امامنا البيرة، وانصرف بخفة، انتظرت حتى ابتعد بمسافة مأمونة وقلت له مباشرة:

"عايزينها تقعد عندك يومين".

صمت علاء قليلا، نظر لنيفين وكنت أعلم أنه يقيس مظهرها، تابعت أنا:

".. وعايزينك في خدمة تانية أنت وسوسن".

"أنا وسوسن!".

"آه.."

"هو فيه إيه؟".

قالها وهو ينظر لي بتصميم كمحقق أريب، متراجعًا في كرسيه. ورغم كل شيء، داخلني ظن أن اللول ضل طريقه إلى التمثيل.

كنت نائما فوق سرير وثير، أمدِّد عضلاتي وأشدها في حجرة لم أتبينها جيدا ولكنني أعرف أنها فخمة ومريحة، وانفتح الباب وإذ بي أرى جينا جايمسون وآشيا كاريبرا وكلوي جونز وصني ليون يدخلن علي، انهمكت كل منهن في تدليلي ومداعبة جسدي، كنت أحاول أن أقول لكلوي التي تمص ذكري إنه لا يجوز هذا وهي مريضة بالصرع، ولكن جايمسون أسكتت اعتراضاتي بقبلة طويلة، بينما كانت آشيا وصني يلتصقان بي منتظرات دورهما، وحدث أن رأيت جنين تدخل من باب لم أتبينه وتزيح عني السنوة في شراسة كما يليق بها، تطور الموقف لخناقة مبهمة، وجنين تضرب جينا وتصرخ بها:

"شيلي إيدك من عليه يا وسخة".

فجأة سمعت صوت موسيقى مميزة، وتذكرت أنها موسيقى مقدمة "الجريء والجميلات"، لم أفهم ما يجري حولي و...

"تتتن تننننتن تننننن تنننننن"

صحوتْ على صوت الموبايل، فتحتُ عيني بصعوبة لأمد يدي إلى الموبايل الذي يرن بإصرار، شاهدت نمرة نيفين، رددت متناوما:

"آلو..".

"تعال شوف الحيوان صاحبك ده!".

"مين!".

"باقولك تعال! عايز يغتصبني".

ميَّزت صوت اللول وهو يزعق من بعيد وأصوات ضجة لم أتبينها، قلت لها وأنا أحاول أن أركز:

"فيه إيه بس؟".

"باقولك عايز يغتصبني وأنت بتقولي فيه إيه بس؟".

قلت مجاهدا لخفض صوتي لكي لا تسمعني الخالة:

"يغْتصبك إيه يا نيفين بس!".

"واللـه العظيم إن ما جيت حالا ح امشي وأسيبكو".

"امشي وسيبينا يا نيفين..".

قلتها وأنا أتظاهر بالغضب، والحقيقة أني كنت أريد أن أنام، قبل أن ترد كنت قد أنهيت المكالمة. وضعت التليفون فوق الكومودينو بجوار السرير وتركت نصف جسدي الأعلي يتهاوى فوق السرير،

نصف دقيقة أخرى وكان التليفون يرن مرة أخرى.

"تتتن تننننتن تنننن تنننننن".

"آلو..".

"عليا النعمة إن ما جيت لأكلمك كل خمس دقايق..".

"ح اعمله سايلنت".

"وح أجيلك البيت وأقول لخالتك إنك شمام واغتصبتني".

"ما تعرفيش البيت".

"ح اعرف م اللول لو إديته اللي هو عايزه وأجيلك في نص الليالي واطلع دينك".

كانت محادثة عبثية من الأساس، لهذا قلت لها بنفاد صبر:

"طيب خلاص ح البس وآخد تاكسي وأجيلك.. اصبري على أمي..".

"بسرعة!"

قمت من السرير متثاقلا وتحسست طريقي لمفتاح الكهرباء، غشيَني النور المفاجئ وأنا أرتدي ملابسي، كنت قد حصلت من اللول على مئتين من الجنيهات، بعدما ذهبنا إلى بيته أنا ونيفين وقلت له الخطة الجهنمية التي خطرت في بالي قبل أن نراه في الكباريه:

أن نجتذب علي لوزة إلى حيث يسكن بواسطة سوسن، ونبقيه عندنا بمساعدة عبد اللـه، إلى أن يحضر لوزة العربة والنقود.

بالطبع اتهمنا اللول أننا نشاهد أفلام تشاك نوريس وفان دام التي فشخت أدمغتنا، لكن عرض نيفين الذي يشمل 30 الفا من الجنيهات نقتسمها بيننا جعلته يقتنع أن الواقع تصنعه الأحلام.

كلَّمت عبد اللـه في التليفون وشرحت له ما ننتوي وأننا نحتاجه معنا، رد بكلمة واحدة - لم تغيرها كونه من بحث في تاريخ علي لوزة الأسود لاحقا - ليِّنة المخارج:

"قشطة".

الخطة، بمنتهى البساطة والابتذال، أن تذهب سوسن وصديقة لها إلى محل الأب، تأكلان وتنتظران حتى يغازل "علي لوزة" سوسن، فتعطيه رقم التليفون، ثم البقية معروفة. نفس مسار نيفين معه تقريبا. وبما أنني لا أكتب قصة ولا أخْرج فيلما، فلم أجد داعيا دراميا يجعلني أغيرِّ مسار الخطة لأرضي القراء. البساطة والاعتيادية هما مفاتيح لما نستجيب له هنا في وادي النيل، وأبلغ مثال أننا قد غلبنا في حرب 56 و67 بنفس الخطة. قالت نيفين إنها ستذهب في الصباح لسحب النقود من بنكها، وبناءً عليه، قلت لهم: إنني أحتاج نقودًا الآن من أجل الخالة والانتقالات. أردت خمسمائة جنيه لكن اللول المتشكك لم يمنحني غير مائتين.

خرجت إلى الصالة ماشيا، تناهى صوت الخالة قادمًا من غرفتها:

"إنت رايح فين يا واد دلوقت؟".

"خارج يا خالتي".

"رايح فين يا واد؟ مش تكن شوية؟".

قلت لها وأنا افتح الباب:

"مشوار".

"ح تبات بره ولا إيه؟".

"يووووه.. سلام".

"طيب سك الباب كويس بالقفل".

كنت أعلم أن الوحدة لا تعرف تبريراتي، ولكني كنت أعرف أن طريقي سيكون أطول، وسأكون وحيدًا أنا الآخر في يوم ما.

كان اللول يهتف بي:

"دي مرة مجنونة يا عم!".

"انا مجنونة يا حيوان؟!" هتفت نيفين بحنق شديد.

"لا.. باقولك إيه! لميِّ لسانك!".

كنا واقفين في صالة بيت اللول بعد أقل من ثلاث ساعات، كان قد منحها الأريكة في الصالة بجوار الغرفة الألوميتال التي كان يصوِّر فيها فقرات الرقص، واحتفظ هو بغرفة نومه بمنتهى الصراحة والوضوح. كان اللول مرتديا الـ"تي شيرت" والشورت المميزين لنومه، بينما بقيت نيفين بملابسها كما هي، هو يقول:

"الحق عليا إني جيت أشقر عليكي".

"آه.. تشقَّر عليا وتدفيِّني! مش كده!".

"يا جدعان اهدوا بقى شوية!" قلت وأنا أحاول فك الاشتباك.

نظر لي وهتف:

"واللـه كنت جاي باظبطَّ عليها الغطا".

"آه وبتقولي ما تيجي تنامي جوا!".

"أنا الحق عليا إني كنت عايز نتبادل الأماكن!".

نظرنا له أنا ونيفين صامتين، نظر لنا، ثم قال فجأة:

"أنا واقف هنا ليه؟! إنتوا مجانين أنا مالي؟!"

تراجع فجأة إلى غرفته، وأغلق الباب وراءه بشدة. نظرت لنيفين التي قالت لي:

"شايف؟"

"إنتي أكيد فهمتي غلط".

"لا ما هو مش علشان صاحبك تحاميله".

زفرت وقلت:

"المهم كل ده خلص. خلاص. آهو في أوضته وإنتي هنا".

"وأنت ح تفضل هنا".

"نعم؟".

"أمال أنا جايباك ليه؟ مانا مش ح أقعد معاه لوحدي".

صمتُّ تماما، وكانت المفارقة في أن الشيء الوحيد الذي جعلني أستسيغ الفكرة هو ما كانت تشكو منه مع اللول. قلت بتمنُّع:

"ح أنام فين طيب؟".

"تنام ع الأرض هنا".

"إنتي مجنونة بجد ولا إيه؟".

"بص.. ح نتصرف.. أنا كلمت أهلي صحيح، وقلت لهم إني مسافرة العين السخنة شوية".

استجبت لتغييرها الموضوع وقلت:

"طيب هايل.. محدش ح يقلق؟".

تشيح بيدها وهي تقول بما يشبه الانزعاج:

"لأ..".

"وجوزك مش ح يسأل؟".

"آهو ح يتكلم كل يومين كعادته يفك نفسه وأقوله إني ف البيت وخلاص..".

"وعلي لوزة؟".

"المفروض أجيبله الفلوس بعد تلات أيام، ح يقابلنا في شارع ناحية منطقته بالعربية على كلامه..".

"نكون إحنا جبناه هنا..".

"بالضبط".

جلستُ على الأريكة، نظرت لي وقالت:

"تشرب حاجة؟".

"لا..".

جاءت بصمت وجلست بجواري. نظرنا لبعضنا، ثم حدث ما كنا نلف وندور حوله منذ ساعات طويلة. كانت فرصة لأن يكون هذا هادئا، وله وقته، بدلا من الهرب من عربة بوكس نصف عرايا، كانت مثل نجمات البورنو اللواتي كنت أحلم بهن قبل قليل، لولا الدائرة السوداء حول عينيها، أردت أن أواصل لمدة أطول، ولكن حركة جذعها المدربة أحضرتني مثلما يحضر السيد كلبه المدرب بصافرة حادة وقصيرة.

وعندما احتضنتها واستقر ظهرها على صدري، لم أتمالك نفسي، ولم أقفز فوق كل سني الثمانينات السخيفة، وسألتها بنبرة ما:

"اشمعني أنا اللي كلمتيني علشان أساعدك؟".

قالت من دون تردد:

"أنت أقل واحد كلمني بعد ما حلقت له".

كانت سوسن تدخن سيجارتها في استعراض ما، وهي واضعة ساقًا فوق ساق في غرفة اللول، ووراءها الكمبيوترات الأربعة. قالت مباشرة، وكأنها سيدة أعمال محترفة، وهي تنظر لوجه نيفين:

"يعني عايزيني أنام معاه!".

تدخلت أنا سريعًا:

"لا.. إنتي تجيبيه هنا وإحنا نستلمه على طول".

نفثت دخان السيجارة، قالت:

"وح تدفعوا كام؟".

تدخل اللول:

"ألف جنيه".

كدت أن أظهر استغرابي، ولكنني تمالكت نفسي أنا ونيفين، صمتنا ونحن نراقب سوسن التي صمتت للحظة ثم قالت:

"تلات تلاف".

"لا.. إنتي كده إتمرعتي" يقولها اللول بصرامة جنرال نازي، يكمل:

"أنا أجيب فوفا على خمسمائة، أنا الحقّ عليا!".

"ماشي.. جيب فوفا يا برنس".

تقولها هي باستهانة، ينظر لها اللول وقد فوجئ، تتدخل نيفين:

"استني بس، هي ألفين من عندي.. إيه رأيك".

تنظر لها سوسن وتظل صامتة، تكمل نيفين:

"ده اللي نقدر عليه".

بالطبع لم يكن هذا هو اقصى ما نقدر عليه، ولكنني صمتُّ تماما، في النهاية نيفين هي من تدفع. يمكنني تبين السخط في أداء اللول منذ ما حدث بالأمس. كنت متأكدا أنه قد سمع ما حدث فوق أريكته المتسخة، وهكذا كان متبرمًا وهو يعد لنفسه الشاي، وتحجج بنفاد نقوده حين طلبنا أن نبتاع نظارة شمسية لنيفين من أجل مشوار البنك حتى تخفي عينها المتورمة. قال لي، وكان محقا، إنه لابد وأني أمتلك بعض النقود المتبقية حتى وصولنا للبنك. ظل نافدا للصبر حتى عدت أنا ونيفين بالنقود، ولم أقل أنا إن صرَّاف البنك كان ينظر لوجهها المغطّى بنضارة الشمس الرخيصة العريضة ولي، جالسا فوق الكرسي غير بعيد، في تشكك قبل أن يدع الملك للمالك.

كنت متوترًا لتوتره، حتى إنني لم أبعث غير خمس قصص كتبتها وبعثتها لراسيكا من أحد الكمبيوترات الأربعة. كان إيميلها يعتذر عن التأخير، وأنهم يغيرون البنك ومن أجل ذلك حصل كذا وكذا، وأن النقود ستكون موجودة في خلال أسبوعين. ما أقلقني أنهم، وللمرة الأولى، ردوا قصتين كنت قد كتبتهما. داهمتني بعض الأفكار السوداء إلى أن دخلت علينا سوسن قبل قليل، معتذرة عن تأخيرها بأنها كانت تبحث عن من يجلس مع وائل ابنها في في توقيت صباحي غير معتاد.

المهم، كنت أتأمل وجه سوسن التي قالت بلهجة نعرفها جميعا:

"تعرفي لو ماكنتيش وليّة وغلبانة وابن الوسخة ده قشَّطك ماكنتش رضيت"

"ماشي". قالها اللول بنفاد صبر، متبرمًا من هزيمة جديدة تلحِقها به نيفين، ثم أكمل:

"تنزلي النهاردة، تجيبي رقم التليفون، تدِّيله معاد بعد بكره في أي حتة، وبعدين تجيبيه على هنا، المهم تبعتي لنا رسالة إنك جاية. ماشي؟"

"ماشي".

قامت نيفين وأخرجت رزمة من الأموال من حقيبتها، ناولتها لسوسن وقالت:

"ألف أهم.. الألف التانية بعد ما تجيبيه.. تمام؟".

"تمام".

قالتها سوسن وهي تعد النقود باهتمام مبرر، نظر لها اللول في قرف، وقال:

"المهم ما تبقيش شكلك مدلوقة أوي. مش عايزينه يقلق".

أتمت سوسن عد النقود ووضعتها في حقيبتها الجلدية الرخيصة، ثم قالت فجأة:

"ماعلهش بقى عندي استفسار".

"إيه؟" قلت لها نافد الصبر:

"هو حق السمين على مين!".

"اطلع لي بره لو دكر يا بن الوسخة".

هكذا وقف الشاب الطويل الأصلع ذو الشعر الويل المفرود والترنج الأسود المغبَّر، والخف الذي حال لونه محيطا بقدمين متسختين. يهتف باتجاه سوق الخضار الذي يجاور محل "علي لوزة". ضحك بعض الجالسين في المنطقة، ولم يعرنه اهتماما كبيرًا، خاصة أنه قد عبر منذ عشر دقائق وقال مثل هذا الكلام حرفيًا ولم يرد عليه أحد.

وبما أن الشاب الأصلع كان يدرك تشاغل الناس عنه، فقد لجأ لتكنيك جديد: أحضر بعض الطوب وأخذ يرميه في عمق الممر ما بين المساحة المظللة للسوق والمباني وراءه. هنا انتبه الناس أن السيرك المنصوب أمامهم سوف يتخذ وجهة جديدة.

بدأ بعض الناس بالخروج من السوق وتبادل بعض الشتائم مع الأصلع، الذي قال أحدهم لغريب من خارج المنطقة إنه يبلغ الرابعة عشرة من عمره فحسب. نظر الزائر له باستغراب مبرر وقال:

"احا".

وعندها كان المشهد يبلغ ذرى دراماتيكية أخرى، ففي هذه الأثناء كانت طوبة ممن يقذفها الأصلع قد أصابت أحد الرجال داخل الممر، فخرجت ثلة من الرجال تحاول الفتك به، وأحدهم يصيح:

"ح اطلَّع ديك أمك يا حرامي الكلب".

وكان "علي لوزة" يراقب كل ما يحدث من كرسيّه، ضاحكًا بشخير واضح على ما يحدث، متوجًا بالدور الذي يتخيله لنفسه: عندما كان يجلس بجوار آنية الحديد الكبيرة في المحل، كان يشعر بأنه سيد العالم المتوَّج، لم يكن يقلب الطعام، ولم يكن يُجلس الزبائن، كان يجلس في موقف المراقب لكل ما يجري، والموجِّه لكل الأحداث، وكأن كرسيه قد استحال إلى كرسي السلطنة. يطل على الزبائن - خاصة المشهورين منهم ممن يجيئون للمكان أحيانا - بعين مستهينة. يقول له أبوه إن التعالي على الزبائن خطأ فادح، ولكن أصدقاءه كان يقولون له دائما إنه "برنس ف نفسه". وهكذا وجد نفسه - كبرنس- مطالبا بانهاء هذه الجلبة، دعك من أن تمتد هذه الجلبة إلى محيط المحل.

كان يعرف الأصلع باعتباره يجوس بالحي في غير مرة، وكانت له ألاعيبه أحيانا: يحمل عصا خشبية غليظة ويمشي في أحد الشوارع المحيطة بالمنطقة ليمثل الجنون ملتقطًا جنيهًا من كل عابر يقوده سوء الحظ إليه، وبالتالي فإن اتهامه بمحاولة سرقة الخضار من السوق كانت تهمة منطقية جدًا. قال بصوت جهير:

"خلاص بقى ياله منك له.. خلاص".

كان تدخُّله في اللحظة التي جرى فيها الأصلع من وجه أربعة رجال يحاولون مطاردته بعدما قذفهم ببضعة أحجار أخرى، بينما التف بعض الناس حول المصاب النازف، فبدت كلماته عبثية من الأساس، ولكنه، وبمنتهى العظمة، وقف ليشاهد الأصلع الذي هرب بعيدًا، بينما اكتفى مطاردوه بشتيمته مر الشتائم بعدما أنهكت رئتهم المدعوكة بالحشيش وسجائر الكليوباترا إثر عدو مائة من الأمتار. عاد إلى مكانه كصانع للسلام، في اللحظة التي برزت فيها امرأتان، إحداهما لحيمة والأخرى متوسطة البنية، مرتديه عباءات سوداء محبوكة، ومصممة لإلهاب الخيال الإبداعي للرجال المصريين، وتزدان بترتر لامع نافس كمية الدهان الذي طلتا به وجهيهما، كما يمكنك أن تتخيل.

أخبرتني اللحيمة، كما يمكنك أن تتخيل أنها سوسن، عن مدى عنف لوزة عندما عاد الشاب الأصلع لسبِّ الدين لجماعة الرجال، وكيف تصدى لهم لوزة، قبل أن يسبه أحد الرجال، فيعتبر لوزة ذلك إهانة لمقامه الرفيع، ثم يشتبك مع الرجال في خناقة حامية، كان عمادها بعضًا من "الكزالك" التي حملها الرجال وصبيان أبو لوزة، وشخص رفيع يبدو أنه من معتادي الأباتريل، واسمه حمسة. تخبرني - بنبرة شممت فيها إعجابًا - كيف أدمى لوزة رجلا منهم بمطواته الحادة، قبل أن يتفرق الرجال من وجه لوزة وفرسانه السبعة.

"يعني مشيتي ع الخناقة وما كلمتيهوش؟".

قلت لها بنفاد صبر، استرعى انتباه اللول وعبد اللـه ونيفين الذين يجلسون أمامي في صالة بيت اللول.

"لا قعدنا أنا وحنان بعدها".

"حلو.. وإيه بقي؟".

"كلّمته وناغشته".

"زي الفل.. ادتيه النمرة؟".

"لا ما هو عجبته حنان...".

صرخت:

"نعم!".

نظروا لي كلهم وقد أخذوا بالهتاف، جاءني صوتها الذي لا يقل غضبا من الناحية الأخرى:

"آه بنت اللبوة شاغلته وخطفته مني..".

"طب وحصل إيه".

"إداها تليفونه ابن الوسخة".

"طب اتفقوا يتقابلوا ولا إيه".

"ما أعرفش".

"احا ما تعرفيش منين؟".

"ما أنا اتخانقت معاها عنده وضربتها وهو قعد يضحك...".

هتف بي اللول.

"فيه إيه يا عم".

نظرت لهم قائلا:

"ابن الوسخة عجبته صاحبتها وهي حرنت وضربتها...".

"احا..".

هتف بها اللول واختطف التليفون من يدي، هتف بها:

"فيه إيه يا بت... إنتي ح تستعبطي... طب كِّلميها و... مش ح تكلميها إزاي يا روح خالتك.. طب باقولك إيه.. هاتي الفلوس لاحسن...".

رفع التليفون من على أذنه ونظر فيه بغضب وقال وكأنه يكلم نفسه:

"بنت الوسخة قفلت ف وشي السكة".

خيم علينا صمت ثقيل. نيفين واللول ينظران لي، بينما انهمك عبد

اللـه في لف سيجارة حشيش. لقد فشلت الخطط البسيطة المكررة، فيما يبدو.

قال عبد اللـه وهو يلعق ورق سيجارته بحرفية غير مستغربة:

"طب نعمل إيه دلوقت يا ماو!".

كنا نجلس في التاكسي والترقب قد بلغ منا مبلغه.

كنت بجوار السائق، بينما جلست نيفين وعبد اللـه فوق الكنبة الخلفية. لم يكن اللول معنا، لأنه وببساطة، قد نعتنا بالجنون، والحق يقال إنه كان صائبًا.

كنا في طريقنا إلى حيث النقطة التي سيأتي فيها "علي لوزة" بالعربة الألمانية الباهظة الثمن، وفوق فخذي تستقر حقيبة أثقلها بعض الورق، وبعض رزم المال. كنت أفضل أن نذهب بورق أبيض ثقيل فارغ، كما كانت الخطة من قبل، ولكن تراجع اللول، وغضب نيفين منه، حالا حتى دون أن نترك المبلغ لديه. ستة وعشرين ألفا من الجنيهات ونصف ألف تستقر مع باقي الورق داخل الحقيبة الجلدية القديمة. ثلاثة آلاف أخذها اللول، وألف أخذتها سوسن الهاربة، وخمسمائة تكاليف بعض السجائر والأطعمة وخلافه.

سيأتي "علي لوزة"، وسنعطيه الحقيبة، ثم نختطفه هو والعربة إلى حيث دبر لنا عبد اللـه مستقرًا، في الرحاب عند صديق آخر

من عتاة الشمامين، وسيكون فرحًا جدا بنقود عبد الله التي زادت بانسحاب اللول، والتي سيتم تحويلها - طبعا - لتل من بودرة كسر القيشاني المخلوطة بقليل من الكوكايين.

نحن حمقى. نحن حمقى. نحن حمقى.

أعرف.

نظر لي السائق وقال:

"أيام سودا يا بيه.. ما بقاش الواحد عارف لا ينبسط ولا يتنيِّل.. وحشنا الكريسمس والله يا بيه":

نظرت له صامتًا فأكمل:

"آه.. ده له فرحة وبهجة كده.. وفين أيام محمد عبده لما كان بيغنِّي ف سميراميس والخلايجة رايحين جايين".

"آه.. حفلات رأس السنة".

لم ينتبه لما أحاول قوله وأكمل بحرقة:

"مش باقولك وحشنا الكريسمس يا بيه..".

نظرت في ساعتي، لا يزال هناك وقت.

نزلنا على ناصية الشارع، ونظرنا داخله. كان شارعًا يصل شارعًا شبه رئيسي بشارع آخر ضيق وأقل اتساعًا. تسوده الظلمة وبعض

الهدوء، مشينا في الشارع متفحصين اتساعه النسبي، والعربات التي تقف على الناحيتين منه. كان الوحيد الذي أتى له في صباح اليوم هو عبد اللـه، ورجع ليصف لنا المكان، وما يمكن فعله.

قلت لنيفين:

"هنا؟".

"أيوه عند المحل ده".

كان محلا على ناصية حارة، تحت بيت إسمنتي قبيح، يجاور بيت آخر عتيق حسن الهندسة، ولكنك غالبا لا تلاحظ ذلك، والقابع على ناصية حارة أخرى. قلت لعبد اللـه:

"طيب شغال.. يالا بينا؟".

نظر لي مستهينا، ثم قال:

"شغال يا ماو".

"خلي بالك من نفسك".

قلتها لنيفين التي تركناها على ناصية الشارع. ودخلت أنا إلى الحارة، بينما دخل عبد اللـه إلى الحارة الأخرى كما اتفقنا سلفا. كانت حارة ضيقة هادئة، لا توجد بها محلات مفتوحة في مثل هذا الوقت المتأخر. لا يزال تتبقى خمس دقائق على الميعاد، وبالطبع نحن لم نأخذ الميعاد من اللورد مونتباتن. تحسست المطواه في جيبي

الأيمن والشراب الحريمي الفيليه في جيبي الآيس. كانت فكرة عبد اللـه، والتي يدين بها لأفلام سمير سيف، عن ضرورة تخفينا حتى لا يعرف لوزة وجهينا. أحسست في البداية أن الأمر به بعض من المبالغة، ولكن، وبما أننا في كوميديا هزلية من الأساس، فقد رأيت في هذا غير قليل من المنطق. المفترض أن ترن نيفين لي، عندما تجلس في سيارتها، ثم انتظر لثانية، قبل أن أشير لعبد اللـه، عبر الشارع الضيق كحارة، الموازي لشارع انتظار نيفين، لنخرج، كل منا من ناحية، لنضرب لوزة ونثبِّته وندفعه داخل العربة. كان الموضوع سيكون أصعب لو لم يكن المكان متوسطًا كهذا، ولكننا كنا سنتصرف، أو هذا ما كنت آمله.

أشعر بالتوتر يأكلني، وكنت أنظر حولي محاذرا أن يراني أحدهم، لا يمكنني أن ألبس القناع الآن وإلا صار منظري جاذبا لكل استفهام ممكن. وقفت على الناصية الداخلية للحارة، حيث يفترض أن يكون عبد اللـه في محاذاتي على الناحية الأخرى، وأشعلت سيجارة، كأني أنتظر أحدهم. عبر الظلام كان يمكنني تمييز جسد عبد اللـه غير بعيد جدا عني.

مرت الخمس دقائق ولم يجئ أحد، انتهيت من سيجارتي ورميتها على الارض، داهسا إياها، مدوِّرا قدمي ذات اليمين وذات الشمال، وكأنني أطحن صرصارا. بدأ صدري يعلو ويهبط وزاد الارتعاش الطفيف في أطرافي.

سمعنا صوت عربة تدخل في الشارع بسرعة. نظرت فميزت عربة نيفين تعبر بهدوء من أمام الحارة لتتوقف. أشرت لعبد اللـه مخرجا الشراب الحريمي من جيبي، وفعل هو ذلك أيضًا.

مرت الدقائق طويلة كدهر، أخرجت تليفوني الذي وضعته على الوضع الصامت وأخذت أنتظر. بدأت بطني في التقلص، وسمعت بالفعل أصواتًا عجيبة تخرج منها.

رن التليفون فتألقت الشاشة أخيرا، رفعت التليفون المتألق في وجه عبد اللـه الذي سيراه في الظلام المحيط بنا، ضغطت زر الإغلاق، ووضعته في جيبي، وأخذت نفسا كعميقا، ثم أشرت لعبد اللـه.

وبدأنا الجري..

خرجت من الشارع، كان لوزة ممسكا بذراع نيفين ويشدها نحوه وهو يصفعها، واقفين أمام العربة، ويصرخ:

"فين بقية الفلوس يا بنت القحبة".

انتبه فجأه لمن يجري باتجاهه، ساد وجهه اندهاش خفيف وأنا أقفز راكلا إياه في بطنه. شاهدت عبد اللـه يستغل نفس المفاجأة مع شاب رفيع آخر جاء مع لوزة، وقعت الحقيبة المفتوحة التي كانت تستقر فوق العربة إلى الإسفلت. كنت ألمح نيفين التي قفزت إلى العربة. ترددت لحظة في أن أمسك بلوزة أم التقط الحقيبة، ولكن

شيئًا ما حصل فجأة، بينما لاحظت ضربة ثانية لعبد الله التي طاشت بعيدا عن الشاب الذي ناداه لوزة باسم حمسة، وهو يمد يده ليحضر شيئا من طيات ثيابه..

فجأة رأيت جمعًا من الرجال يعدون نحونا ويصيحون، واثنين منهما ممسكان بفرود خرطوش وأحدهم يصيح:

"تعال يا لوزة يا بن المتناكة! ح أعور ديك أمك!".

تطير البلي في الهواء، رأيت إحداها تصطدم بعبد الله الذي تأوّه، بينما حول لوزة ما أخرجه، والذي لم يكن سوى فرد خرطوش آخر، إلى حيث يجري الرجال قادمين من نهاية الشارع، سمعت صوت تهشم زجاج، وصراخ نيفين. انحنيت بشكل غريزي، وعيناي معلقتان بالحقيبة.

وكما يمكنك أن تتخيل، أخذت خطوتين ناحيتها، ملت والتقطها قبل أن يعمِّر أحد من الرجال أو لوزة مسدساتهم البدائية، أطلقت قدميّ للرياح، غير آبه ببعض الرزم التي تساقطت منها، وأنا أعدو للحارة المقابلة. تصاعد صوت العربة التي انطلقت بها نيفين، وأصوات الرجال التي أمسكت بلوزة وحمسة، وربما عبد الله، لا أعرف.

انطلقت في الحارة حاملا الحقيبة ضامًا إياها لصدري، خارجًا لشارع شبه رئيسي آخر، والناس تنظر لي بدهشة، تذكرت أنني

ما زلت ألبس الشراب الحريمي فوق رأسي، ولمحت عربة بوكس على مسافة ثلاثمائة من الأمتار، ومن فيها ومن يقفون بجوارها ينظرون إليّ بدهشة. لم يكن هناك وقت لنزع القناع، جريت عابرا الشارع، داخلا في حارة جديدة، ووراءي بعض أمناء الشرطة والأهالي، بلا شك.

أود التوجه بالشكر إلى صديقي العزيز وزميلي الروائي الموهوب والصحفي أحمد ناجي، الذي سمح لي باستخدام بعض المواد من مقالته عن القصص الإباحية ومنتدياتها، المنشور على صفحة الإنترنت، بعنوان "الأدب الإيروسي: تاريخ الرغبات السرية عند العرب". "على موقع: http://raseef22.com/"

كما أود التوجه بالشكر لصديقي عمَّار حمودة، الذي لم يبخل عليّ بالتفاصيل التقنية عن كيفية تعامل كتَّاب القصص الإباحية بشكل احترافي عبر شبكة الإنترنت.

ولد محمد علاء الدين فى باب اللوق فى 7 أكتوبر 1979، وتخرج فى كلية الآداب - قسم الإعلام - شعبة الصحافة من جامعة حلوان، فى العام 2001. له العديد من الكتابات الساخرة وأربع من الروايات: إنجيل آدم (2006) من دار ميريت (طبعة ثانية 2008 من كتاب ميزان) واليوم الثاني والعشرون (2007) والصنم (2008) والقدم (2009) من دار العين، وثلاث مجموعات: الضفة الأخرى (2003) عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، والحياة السرية للمواطن م (2008) عن كتاب ميزان، والصغير والحالي (2012) عن دار ميريت. ترجمت بعض أعماله للإنجليزية والروسية والإيطالية، يعيش فى القاهرة متفرغًا للكتابة.

"عدة مكوّنات في إنجيل آدم تكشف مقصدية الكاتب ذات الطابع الكوني، الإنساني، فالنص، بشكله المندرج تحت "المحكَى الشعري"، وبتوجهاته التجريدية ولغته المكثفة، الموحية، يحمل إلينا خلاصة مجابهة الوعي الفردي لمجتمع قائم على الاختلال، يتحيَّز في النهاية لقيم الفردانية الطامحة إلى تغيير الموروث والالتصاق بما ترغب فيه الذات ويشكل جوهرها".

د. محمد برادة – الرواية العربية ورهان التجديد، عن إنجيل آدم.

"تعاكس الشائع والمألوف في الكتابة ببراعة وإيقاع واحد ولغة متدفقة".

الأهرام – عن إنجيل آدم

"نقلة نوعية وتجريبية في النص السردي المعاصر في مصر".

النهار اللبنانية – عن رواية إنجيل آدم

"أما اختيار هذه المقاربة كأسلوب فنيّ يمتدّ على صفحات "اليوم الثاني والعشرون"، فمردّه –على الأرجح– إلى ولع بإعادة ترتيب الزمن، تجيز مدلولاته التركيز على صور دون غيرها؛ فيبرع الكاتب في بتر حوادثها، ثمّ العودة إليها متى وجد إلى ذلك سبيلاً، ببراعة وسلاسة في الأداء".

النهار اللبنانية – عن اليوم الثاني والعشرون

"لقد استطاع محمد علاء الدين أن يضع ركنًا جديدًا في عالمه الروائي، الذي تبدو كل حلقة فيه وعدًا جريئًا بمشروع يؤكد رسوخ صاحبه كمساهم أساسي في حركة الرواية المصرية المعاصرة".

أخبار الأدب – عن الصنم

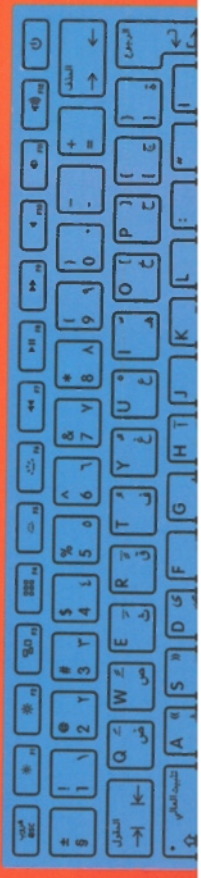

الغلاف رسوم وتصميم: مخلوف

9 789774 902673

دار العين للنشر
Elain Publishing House